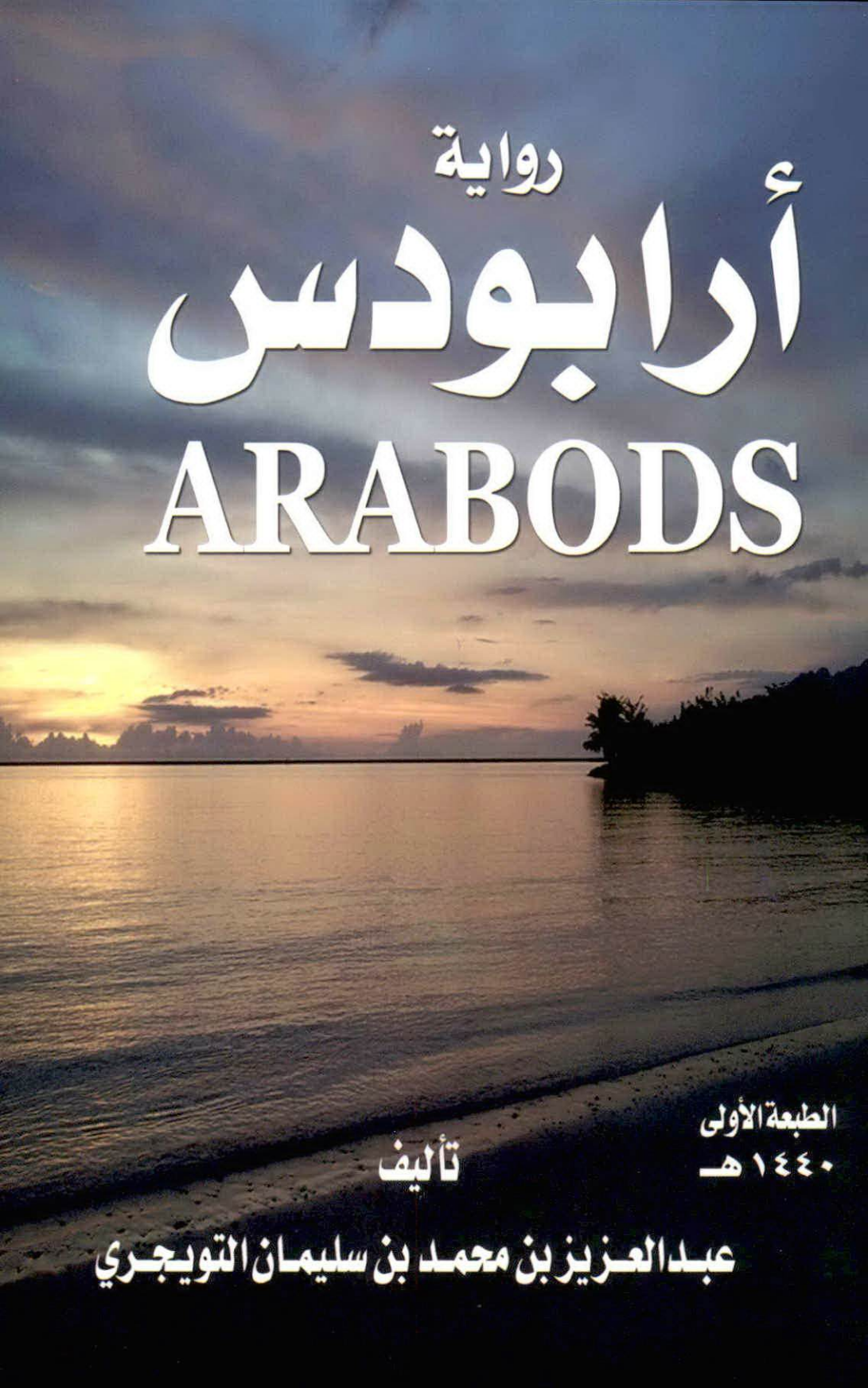
رواية
أرابودس
ARABODS
الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ
تأليف
عبدالعزيز بن محمد بن سليمان التويجري

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ عبدالعزيز محمد التويجري ، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التويجري ، عبدالعزيز محمد سليمان
أرابودس. / عبدالعزيز محمد سليمان التويجري .- بريدة ، ١٤٤٠هـ

١٣٥ ص ؛ ٢٣*١٦ سم.- (لايوجد ؛ ١)

ردمك: ٧-٠١٦٠-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٤٠/٦٤٦٢

أرابـودس

تأليف
عبدالعزيز بن محمد بن سليمان التويجري

الإهـــداء

إلى القلب النقي والروح الطاهرة التي غادرتْ دنيانا

إلى غير أوبة .

إلى أخي العزيز وصديقي الحميم /

خالد بن عبدالعزيز المطلق أبي عبدالعزيز .

رحمه الله وغفر له وأسكنه الفردوس الأعلى برحمته .

ورحل خالد

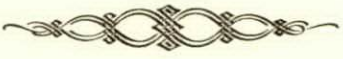

قرأتُ موضوع الأخت بعثرة في رحيل أخي العزيز خالد بن عبدالعزيز المطلق - رحمه الله - فكانتْ هذه الخاطرة ، التي كتبتْ على عجالة في لحظة شجنٍ شديدةٍ :

عرفتُ أخي وصديقي خالداً - رحمه الله - في هذا الصرح العامر ، وكنتُ حريصاً على رؤيته وعندما رأيته ازددتُ إعجاباً بأخلاقه ، وصفاته النادرة في هذا الزمن .

التقيتُ به أول مرة في مقهى (يوم القهوة) ، في إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان عام ١٤٣٨هـ ، أتيتُ قبيل الموعد بقليل ، وعندما أتى التفتَ يمنة ويسرة ، ثم اتصل ، فرددتُ عليه ، فنظر إلي ثم ابتسم ، وأقبل وسلم ثم جلس ، فسألته عن سبب كثرة التفاته فقال : كنتُ أبحث عن شيخٍ ، أنزع ، أشيب ، يرتدي نظارات .

عجبتُ وسألته من هذا الشخص ؟

فابتسم (رحمه الله) وقال : خلتُك بهذه الصفات ! ولم أظن أني سأرى شاباً في منتصف عقده الثالث .

تحدثنا ، وتندرنا ، وطال بنا الحديث كاشفاً لي عن رجاحة عقله ، وسعة ثقافته ، ومعرفته بالناس .

رأيته بعدها مرتين آخرها في شهر شوال ، فتناولنا القهوة في مقهى(يوم القهوة) ثم أخبرته أني أريد شراء بعض الكتب ، فذهبنا إلى

-مكتبة العبيكان- ولم أجد ما أريد فاشتريتُ كتاب -القواعد الأساسية للغة العربية-(كتاب في النحو) لأحمد الهاشمي - رحمه الله - فقال خالد - رحمه الله - مداعباً : أخال أن ثلثا مرتبك يذهب على الكتب .

ابتسمتُ وقلتُ له : أسأل الله ألا تُبتلى بالأدب .

ابتسم - رحمه الله - ثم اتجه إلى المحاسب رافضاً جميع محاولاتي بدفع الحساب ، ثم نقد ثمن الكتاب من ماله ، ولم يَدُرْ بخلدي أن هذه آخر مرة أراه بها في هذه الدنيا الفانية - فرحمه الله - وغفر له .

هكذا يرحل الأحباب دون سابق إنذار ! مخلفين بقلوب أحبابهم أُتناً لا يخبو سعيرها ، فارحل أيها التقي نقي السريرة ، ميمون النقيبة ، محمود السيرة ، مرضي الصحبة ، مبكي الرحيل ، مفقود المكان ، باقي الذكر .

ارحل أيها التقي النقي عن دار السخائم والأضغان حاملاً معك بسمتك ، وصدقك ، ونقاءك ، وإباءك (الذي صنفه الكثير صلفاً وكبراً) ولطفك ، ومراعاتك لمشاعر الآخرين ، ومقابلتك الإساءة بالإحسان ، مخلِّفاً خلفك دار الوصب ، والنصب ، والحقد التي لم يحتمل أهلها صدقك ونقاءك ، فقد اختار لك الرحمن برحمته داراً خيراً لك من هذه الدار لا موت فيها ، ولا سقم ، ولا إحن .

ارحل أيها التقي النقي مبقياً خلفك الخلق الحسن الذي عُرفتَ به ، والنية الصادقة التي أُثرتْ عنك ، والذكرى الطيبة التي نذكركَ بها .

ارحل أيها التقي النقي من دار الظعن والعفاء ، إلى دار المقر والبقاء ، مُخلِّفاً في قلوب أحبابكَ لوعةً تُمزِّقُ نياط قلوبهم ، وتُفيضُ مَدامعَ عيونهم ، وتَبعثُ أنينهم وخنينهم ، وتَرفعُ أكفهم إلى الرحمن الرحيم تسأله لك العفو والغفران وأعالي الجنان ، فرضي الله عنك وأسكنك الفردوس الأعلى ، وآمنك يوم الفزع الأكبر ، وأعطاك كتابك

بيمينك ، ورزق أهلك وأحبابك الصبر والسلوان ، فالخطب جلل ، والفقد عظيم .

عندما قرأتُ نعيكَ يا حبيب القلب لم أستطعْ حبس الدموع التي انهمرتْ ، والشجن الذي طما طوفانه ، حتى سألني من حولي من خالدٌ هذا الذي تبكيه ؟

فحدثتهم عنكَ ، وعن دماثة خلقك ، ونقاء قلبك ، وصدق تعاملك ، حابساً تأثري فلما خلوتُ بنفسي أطلقتُ لدموعي العنان(ولا عيب في ذرف الدموع على الأحباب) وعدتُ بذاكرتي إلى تلك السويعات التي قضيتها معك والتي تفوق بصدقها وإخلاصها أعواماً قضيتها مع بعض الصحاب .

اللهم يا رحمن يا رحيم اغفر لأخي خالد وأنزل عليه من شآبيب رحمتك ما ينال بها رضاك وترفعه بها مع الصالحين .

اللهم لقِّه الأمن والبشرى ، والكرامة والزلفى ، وافسح له في قبره مد نظره ، واجعله روضة من رياض الجنة يا رحمن .

❖❖❖❖❖❖❖

تنـــويـــه

كنتُ قد عزمتُ على هجر الكتابة بعد إخراج كتاب (عبير الذكرى)، وإتلاف كتاب (الأدب خطوة خطوة) الذي بدأتُ بإعداده ، وكتاب (أقاحي الروض) الذي أمضيتُ اثني عشر عاماً في إعداده ، وكتاب (تساؤلات) الذي أنهيتُ ثلثه تقريباً ، لأمرٍ في نفسي ، ثم للسأم الذي يكتنفني حينما أضع القلم بين أناملي ، وفي هذه الأثناء أتاني من يخبرني أن البعض ممن يعرفني يتندر بي ، وبكتابي (عبير الذكرى) ويتفكه ، فعزمتُ على كتابة هذه الرواية التي سخريتهم أحد الأسباب الداعية إلى تأليفها ، (كتبتها عام ١٤٣٥هـ ، في خمسة وأربعين يوماً) فلهم مني آيات الشكر والعرفان ، المضمخة بالمسك والريحان ، المكللة باللؤلؤ والمرجان على جميلهم الذي أولوني إياه بسخريتهم ، وتندرهم ، وتفكههم ، أكرر لهم شكري مرة أخرى .

❖❖❖❖❖❖❖

فخر التواجر

كتبتُ هذه القصيدة المتواضعة في أخي وصديقي وأستاذي وموجّهي العزيز / عبدالعزيز بن محمد التويجري ، وهي لا تفيه حقه .

يسوق حرفه مثل سوق المطايا فخر التواجر كلهم ما به جْدال

يا قو قافه من جميع الزوايا القاف عذب من صبِّ شلال

اليا سمعنا بيت رحنا ضحايا قصايده ما هي بتطري على البال

ويا سعد من هو واصلٍ له هدايا بيتين من عنده وزن خمسة جْبال

بيتين لا والله ما هي هفايا من راس شيخٍ جوَّد الشعر بحبال

البيت الأول شوَّش أربع سرايا والبيت الآخر هوَّل ألفين رجال

أقولها وبدون زيف ودعايا أقولها صادق ولاني بدجَّال

❖❖❖❖❖❖❖

الشاعر / أحمد بن سامي السناني (أبو سامي) .

السر

أشرقت الشمسُ ودخلتْ أشعتها مع النافذة وامتلأ المنزلُ بالضياء فاستغربتْ درلفر من تأخر زوجها برلنور فذهبتْ إلى غرفته فوجدته واضعاً كفيه على خديه وينظر إلى طائرٍ صغيرٍ خلف النافذة فتقدمتْ إليه وجلستْ على حافة السرير وقالتْ: ما الذي دهاك يا زوجي العزيز ؟ ولم أنتَ اليوم على خلاف العادة ؟

نقل بصره من النافذة إليها ثم أطرق برأسه وصمت .

أعادت السؤال مرة أخرى : ما الذي دهاك يا زوجي العزيز ؟ ولم أنتَ اليوم على خلاف العادة ؟

رفع رأسه ونظر إليها مليّاً ثم قال : دعيني في الفراش قليلاً فإني بحاجةٍ إلى بعض الراحة ولا أودُّ مُبارحة الغرفة .

عجبتْ درلفر من هذا الأمر وسكتتْ على مضضٍ وخرجتْ وأغلقت الباب خلفها ثم اتكأتْ عليه وسرحتْ بخيالها إلى تلك الليلة التي دخلتْ فيها إلى العلية فوجدته يُقلِّبُ أوراقاً بين يديه فذعرتْ عندما مر هذا بخيالها ثم مسحتْ دمعةً ترقرقتْ رغماً عنها وذهبتْ إلى المطبخ لإعداد الفطور وعندما انتهتْ ذهبتْ إلى زريبة الحيوانات فأخذتْ ما وجدته من بيض الدجاج فوضعته في سلَّةٍ معها ثم وضعت الإناء الذي معها وبدأتْ تحلب الماعز لإعداد الجبن الذي أوشك على النفاد وقد تناثر البعضُ منه بسبب رعشة يديها وسهوها .

عندما انتهتْ من الحلب حملت الإناء وخرجتْ ، وأوصدت الباب ، وأحكمتْ إرتاجه ، ثم اتجهتْ إلى المنزل حاملة ما معها .

كانتْ تمشي بخطى متثاقلة وكادتْ تعثر بحفرة بسبب شرودها ولكنها سلمتْ ووصلت المنزل وولجتْ إلى الداخل فوضعتْ ما معها ووجدت الفطور على المنضدة لم يُمس فاتجهتْ إلى المخدع فوجدتْ زوجها مطرقاً

برأسه كما عهدته في أول الصباح فجلستْ بجانبه ومررتْ يدها على شعره وقالتْ بدلال : لم أنتَ على غير العادة يا زوجي العزيز ؟ هل أصابك مكروهٌ ؟

نظر إليها فرأى غلالةَ حُزْنٍ رقيقةٍ تُخَيِّمُ على وجهها فأطرق برأسه وصمت فلما رأتْ درلفر هذا قالتْ له : أَأُحْضِرُ لك وجبة الإفطار هنا ؟

قال لها : لا ، لا حاجة لهذا سأتناوله بعد عودتي من الحقل .

ثم نهض فنهضتْ على إثره ولما سمعتْ صرير الباب يُغلق وصوت خطوات تَبتعد تهاوتْ على أقرب كرسي إليها وانسابتْ دموعها خشية أن يكون زوجها قد صبا قلبه إلى غيرها وهي الوردة التي لم تتفتَّحْ أوراقها إلا له ، ولم يعبقْ أريجها إلا عنده ، فكيف يجازيها هذا الجزاء ، وكيف يخونها في مشاعره وهي التي أخلصتْ له ؟

عندما وصلتْ في تفكيرها إلى هذا الحد عيل صبرها فردَّدتْ قائلة : الرجال لا أمان لهم ولا عهد .

ثم خرجتْ إلى الحقل تمشي بحذر خشية أن يراها زوجها فكانتْ تختبئ خلف الشجر حتى وصلتْ إليه فأجالتْ ناظرها فيه فلم تره فبحثتْ في جميع أنحائه فلم تجده فذهبتْ إلى زريبة الحيوانات فوجدت الباب على حاله عندما أوصدته فجلستْ تحت شجرة الصنوبر تُكفكف عبراتها ، وتلم أناتها وزفراتها ، وتسرح بخيالها بعيداً إلى أن زوجها قد تزوج عليها وهو الآن مع ضرتها ، يُضاحكها ، ويُداعبها ، وهكذا الأنثى عندما تغزو قلبها الغيرة وتعيث فيه ، يعزب عنها الصبر ، وتجافيها السكينة ، وتضحي كالريشة في مهب الريح ، تتقاذفها الأفكار يمنة ، وترميها الظنون يسرة ، فلا تستقرُّ على فكرٍ ، ولا تثبتُ على رأيٍ ، وما قوَّضَ سعادة زوجين ، وجلبَ عاصفَ الهمِّ ، وقاصفَ الفراقِ مثل الغيرة الزائدة

في غير محلها ، والشك الذي لا أساس له .

رفعتْ رأسها إلى السماء فرأتْ طائرين يغردان ويتمسح أحدهما بالآخر فثبتتْ بصرها عليهما ولم تزغْ عنهما ثم قالتْ : كم أحسدكما على هذه السعادة التي تكتنفكما فلا تخشيان غدراً وخيانةً أما أنا فكما تريان أنثى مكسورة تأكلها الغيرة وتخشى عاقبة عزوف زوجها وتدثره بجلباب الصمت والوحدة .

لم يَطُلْ بها الوقتُ بعد هذا الحديث إلا وصوتُ زوجها ينادي : درلفر درلفر أين أنتِ يا درلفر ؟

لم تُجبْ على ندائه بل تركته يعيد النداء ويكرره حتى سئم فأتى يبحث عنها فوجدها تحت شجرة الصنوبر تذرف الدموع الغزار فمسح دموعها بيده وقال: ما الذي دهاكِ يا زوجتي العزيزة ؟ وما الذي دعاكِ إلى البكاء والنحيب ؟

لم تُجبْ على سؤاله بل وضعتْ خدها على كتفه وبدأتْ بالبكاء والنحيب فأشجاه هذا الأمر وسألها : أتخفين عني ما يشجيكِ أم أنكِ لا تريني أهلاً لأن أحمل الهمَّ عنكِ .

رفعتْ رأسها وقالتْ : إنما هو عارضٌ صحيٌّ ألمَّ بي هذا الصباح ولعلي أذهب لميريرا فهي خبيرة بالعلاج بالأعشاب فلا تأس ولا تحزن فإنما هو ألمٌ عارضٌ وسيزول قريباً .

أظهر الابتهاج وأمسك بيدها وذهبا إلى المنزل ليتناولا الفطور (ولم يعلمْ أن زوجته تُخفي ألمها وشجنها عنه ، وقد عزمتْ على أمرٍ ستنفذه متى سنحتْ لها الفرصة ولن يحولَ شيءٌ أمام ما عزمتْ عليه) .

وصلا المنزل فدخلا واتجه برنلور إلى العلية أما درلفر فاتجهتْ إلى المطبخ لتسخين الفطور وفي العلية كان برلنور يتساءل عن سبب شجن زوجته

درلفر ودموعها .

أطال التفكير ولم يعرف السبب ثم أفاق من شروده على صوت درلفر تدعوه إلى الفطور فنزل على عجل واتجه إلى غرفة الطعام وجلس على المائدة وبدأ الأكل وكان يختلس النظر بين الفينة والفينة إلى درلفر فيراها ساهية عازفة عن الأكل وقصعتها لم تأكل منها لقمة فسألها قائلاً : لماذا لم تأكلي لقمة واحدة ؟ ولماذا الشرود بادٍ عليكِ ؟ أهناك خطبٌ ما تخفينه عني ؟

ردتْ عليه قائلة : ليس هذا بالأمر المهم إني أشعر ببعض الفتور من فجر هذا اليوم وكما قلتُ لك قبلاً سأذهب إلى ميريرا فهي خبيرة بالعلاج بالأعشاب .

أجابها والقلق بادٍ عليه : سأوصلكِ إليها بعد ما ننتهي من تناول الفطور .

قالتْ له : المكانُ قريبٌ ولا حاجة لهذا .

صمتَ على مضضٍ ولم يشأْ مجادلتها في هذا الأمر البسيط كي لا يزيد ألمها وبعدما انتهيا خرج إلى الحقل ولكنه لم يفعلْ أي شيء بل استلقى تحت إحدى الأشجار وبدأ يُحدِّثُ نفسه بصوتٍ مسموعٍ : يا ترى أهذا الذي حدث في الصباح علاقة بالحلم الذي تكرر ثلاث ليالٍ متتالية ؟ لا ، لا ، لا ، يستحيل هذا فالعارضُ الصحيُّ لا علاقة له بالحلم الذي رأيته .

ثم يصمت وينظر إلى السماء ويطيل التأمل ثم يقول : بل العلاقةُ بينهم وطيدةٌ فكما أرى أن تلك السحابةَ التي أظلتني ، والغرابَ الذي نعبَ فوق الأيكة العارية لها شأنٌ بما يحدث ؟

نعم ، العلاقةُ بينهم وثيقةٌ فالغرابُ أسودٌ ، والسحابةُ داكنةٌ ، والأيكةُ

قد حتَّ ورقها ، ولكننا في الصيف وورق الأشجار يتساقط في الخريف .
ثم يصمتُ قليلاً ثم يقول : إني أكاد أجزم أنها أضغاثُ أحلامٍ لتناقضها ، أم أن الغموض اكتنفها فاستعصى على عقلي فك رموزها .
أطال التفكير وأكد ذهنه ليحل رموز الحلم ولكن الأمر أعياه فأغمض عينيه وشعر بشيء يُطيفُ بقلبه وحرارةٍ بدأتْ تستعر فيه فوضع يده عليه وقال : قد أشقيتني في عهدٍ مضى فهل ستُعيدُ ذلك الشقاء والشجن اللذين أمضَّاني وأقضَّا مضجعي ؟
ثم نهض واتجه إلى المنزل يجر قدميه جرَّاً وهو يرى في الأفق بوادرَ عاصفةٍ هوجاءَ تُنذرُ بالخطر ودخل واتجه إلى العلية وأوصد الباب خلفه وأخرج عدةَ قصاصاتٍ من الورق وقرأ أولها فإذا مكتوبٌ فيها : كنتُ أعبر سككَ الدنيا وأزقتها وحيداً ، أُسامرُ الشَّجنَ ، وأُخادنُ الوحدةَ ، وأثناء مسيري بزغتْ شمسُ حبكِ ، فأضاءتْ ظلمة دنياي ، وأزالتْ شجني ، وملأتْ قلبي أُنساً وسروراً ، فأممتها ، وغذذتُ السير إليها ، غير عابئٍ بغيرها من النجوم ، ولا آبهٍ بما يمضي من أعوام عمري ، إلى أن نَمتطي فرسَ الحُبِّ ، ونَجْتازَ مَفَاوزَ النَّأْي ، ونعلو فوق سُحُب البين ، ونبني قصرَ الوصْلِ ، ونتكئ على أرائك اللقاء ، وننصب عرش السعادة لتجلسي عليه ، وأصدح بأعلى صوتي أحبكِ يا أرق ، وأبهى زهرة عبقتْ في أرجاء حياتي حُبَّاً لن يضعف عنفوانه إلى أن يُطوى عمري ، وتَنْفدَ أيامي ، وتَخْمدَ أنفاسي .
وفي التي تليها : إن الأجسامَ تشيخُ وتسقمُ ، والأعمارَ تُطوى وتَنْفدُ ، والأحلامَ تتغيَّرُ ، والأماني تتبدَّلُ ، والمناظرَ الخلابةَ يَقلُّ بهاؤها بتكرار النظر إليها ، أما حبكِ فمتأصلٌ في القلب ، متجذِّرٌ ، لا يَشيخُ ، ولا يَسقمُ ، ولا يَنفدُ ، بل هو فتيٌّ كيوم وُلد ، ومُحياكِ الوضيء الفاتن يزداد

جمالاً وبهاءً مع كل نظرة .

وفي الثالثة : قطفتُ هذه الوردة من بستان الحب وقدمتها إليكِ لأن فيها بعضاً من رقتكِ وشذاكِ يا سيدة الحسن ولكن احذري من أن يؤذيكِ شوكها لأنه لم يُصِبْ إصابةً تامةً من شبَّهكِ بها فأنتِ أرقُّ منها ، وأنعمُ ، وأعذبُ ريَّاً ، والوردُ يذبلُ مع الأيام أما أنتِ فلا يزيدكِ كَرُّ الأيام إلا بهاء .

ومهورة بالأسفل بحرفي a-r وتاريخ ١٨٠٩ م .

أعاد القصاصات الثلاث مع البقية إلى الدرج ووضع كفيه على خديه وبدأ التفكير وقد أرجعه ذلك التاريخ إلى عهد الصبا عندما كان طفلاً يلعب مع أترابه ، سليم الصدر من الأحقاد والأضغان ، لا هم عنده إلا المأكل والمشرب والملبس واللهو والعبث مع لداته ومرتْ بخاطره تلك الصبية القاطنة في القصر الأفيح التي سلبتْ لبَّه فشعر بموجةٍ عارمةٍ من الحنين تجتاح قلبه دفعة واحدة فوضع يده عليه لا شعوريَّاً وضغط عليه ثم تساءل : ترى ماذا حدث لتلك الصبية الآن ؟ ما حالها مع تقلبات الدنيا ؟ أهي على قيد الحياة أم واراها الثرى ؟ وإن كانتْ حية أسعيدةٌ أم شجيةٌ ؟ أتراها تزوجتْ وأنجبتْ ؟ أهي مثلي في هذه الساعة تحن إلى عهد الصبا المنصرم ؟

ثم نهض واتجه إلى النافذة وفتحها وبدأ التأمل ولكن الذكرى غلبته فعاد إلى شجرة الزان والفتاة في القصر الأفيح التي تلعب معه في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى تُلوِّحُ له من شرفة القصر وتبتسمُ له ابتسامةً عذبةً تبعثُ في قلبه أُنْساً لا يُفارقه طيلة ذلك اليوم .

تبسَّم وهو يتذكَّر ذلك اليوم الربيعي ، عندما كانا يتحدثان في باحة القصر حيناً ، وحيناً يصعد الشجرة الضخمة فتطلب منه النزول كي لا يسقط ،

ولكي لا يوبخه والدها إن رآه ، وحيناً يعدوان بجانب الورود ، وحيناً يرميان الأحجار في النبع ، أو يرميان الطيور التي ترتاد الشجرة .

ثم قهقه عندما تذكر إصرار الصبية على أن يتناولا الطعام في حقل الورود بسبب أنه قطف وردة وأعطاها إياها ولم تُفِدْ محاولات والديها بثنيها فانصاعا لرغبتها وتركاهما يتناولان الطعام في الحقل .

أفاق من شروده على وقع أقدام تصعد الدرج فنهض وفتح لينزل فرأى درلفر أمامه فقالتْ له : لقد أعددتُ الشاي والكعك فهلم معي لنتناوله .

سألها قائلاً : كيف أنتِ الآن ؟ هل زال العارض الذي ألم بكِ ؟ ماذا قالتْ لكِ ميريرا وأوصتكِ به ؟

ردتْ عليه قائلة : لقد طمأنتني إلى أن صحتي جيدةٌ وأن ما أصابني إرهاقٌ بسبب كثرة العمل وعلي الراحة لمدة أسبوعٍ كامل .

تنفس الصعداء وقال : عليكِ الالتزام بما أوصتكِ به ميريرا .

قالتْ : نعم ، لك ذلك فاطمئن .

ثم ابتسمتْ وقالتْ في سرها : (إن كيدَ النساءِ عظيمٌ وما هذه إلا حيلةٌ يا زوجي العزيز لأعرف سرَّ شُرودك) .

أوصد الباب خلفه ونزل معها واتجها إلى الباحة أمام المنزل وبدآ تناول الشاي والكعك وفجأة أشار إلى جهة الشمال وقال : هناك يا درلفر كنتُ ألعب مع أترابي و...

وقبل أن يكمل حديثه قاطعته قائلة : من هم أترابك ؟ وأين مكان لعبك ؟

وقع في فخها فقال : كنتُ ألعب مع بارتل ، ورافيل ، وماردل ، ولكن أجمل ساعات لعبي ولهوي هي عند شجرة الزان في الجهة الشمالية بجانب

القصر الأفيح فهناك ...

ثم صمت فجأة وشعر أنه تمادى في حديثه فشجعته على الحديث قائلة : إن حديثكَ هذا شيّقٌ فماذا يوجد عند شجرة الزان ؟ ومع من كنتَ تلعب ؟ وبمن كنت تلتقي ؟ هيا أكمل حديثك فكلي آذانٌ صاغيةٌ لهذا الحديث الممتع .

اضطر للكذب كي لا يفضح سره : هناك أرى النساء يستعذبن الماء لبيوتهن ، وأرى الرجال في حقولهم يكدون ويكدحون .

قالتْ درلفر في نفسها : لقد أمسكتُ بأول الخيط وسأعرف سرَّكَ قريباً وسأريحُ هذا القلب الذي لم يُبارحه القلق لحظة .

تغير برلنور مذْ ذلك اليوم فبدأ يُكْثِرُ من الجلوس في الحقل دون عملٍ ، وينكتُ الأرض بعودٍ بيده ، وأحياناً يُطيلُ النظر إلى أشجار الحقل والطيور التي ترتادها ، وأحياناً ينظرُ إلى جهة الشرق ثم يُكفكفُ دموعاً أبتْ إلا الانهمار .

كانت درلفر تراقبه ويعتصرها الألم للتغير الذي طرأ عليه وفكرتْ وأطالت التفكير ولم تعرف السبب لهذا التغير المفاجئ .

عاودت التفكير وأخيراً اهتدتْ إلى حلٍّ فالتغير المفاجئ ستجده حتماً في القصاصات في درج المنضدة في العلية ، وستقتنص فرصة ذهابه للحقل لتقرأها ، ثم ابتسمتْ بعد هذا الحل الذي ستعرف به سر زوجها ، ولكنها تذكرتْ فجأة أنه يكثر من الذهاب لجهة الشمال وربما أنه يذهب إلى شجرة الزان عند القصر الأفيح التي حدثها عنها فلماذا لا تذهب إلى هناك وتُباغته كي لا يجد مناصاً من الاعتراف لها بما يُخفيه عنها .

ابتسمتْ بعدما اهتدتْ لهذا الحل وأخلدتْ للمبيت وما أطول ليل المنتظر .

لم تنمْ إلا لماماً فلما ظهرتْ تباشير الفجر الأولى هبتْ من رقادها واتجهتْ إلى المطبخ وبدأت إعداد الفطور ثم ذهبتْ إلى الغرفة وأيقظتْ زوجها وبعد تناولهما الفطور ذهبتْ إلى الزريبة وأخذتْ ما وجدته من بيض وحلبت الماعز ثم قفلتْ إلى المنزل وعند الباب وافقها وهو يستعد للخروج فأنبها وأمرها ألا تبرحَ فراشها إلا بعد أسبوعٍ كاملٍ كما أوصتها ميريرا فاعتذرتْ ووعدته أن تفعل ذلك وبعد خروجه تابعته من بعيد فوجدته يتجه إلى الحقل ، ثم يأخذ يمنةً عنه ، ثم يمشي مئات الأمتار حتى يَصِلَ إلى رابيةٍ مرتفعةٍ ، ثم يأخذ شرقاً عنها ويمشي قرابة الثلاثمائة مترٍ حيث يوجد هناك شجرةُ زانٍ ضخمةٍ عند قصرٍ مهجورٍ فجلس عندها قليلاً وبدأ يَتنهَّدُ ويَتمرَّغُ على الرَّملِ وكأن سم الأفاعي يجري في جسده بدل الدم .

كانتْ درلفر خلف إحدى الأشجار ترقب ما يحدث فلما كان بعد ساعة نهض ومضى فأتتْ مسرعة لتستطلع الأمر وتستجلي ما استبهم عليها فلم تر غير شجرة الزان وبقايا قصرٍ مهجورٍ ولما جلستْ عندها رأتْ منحوتاً عليها (قد صبا إليكِ قلبي مذْ رأيتكِ أول مرة ولن يبرحَ هواكِ قلبي ما دام بجسدي عرقٌ ينبضُ ، ونفسٌ يتردَّدُ ، فإن ضاقتْ بكِ السُّبُلُ فلكِ بقلبي قصرٌ أفيحُ أنتِ ملكته وسيدته ، وإن أرمضكِ الشجى فألقيه على عاتقي ، وعيشي هانئةً سعيدةً ، فلأجلكِ تلين قناتي ، وتَسْهُل خليقتي ، وتَضْعُف شكيمتي ، وتَخْضَع عزتي ، وينحني كبريائي) .

تبسمتْ ثم قالتْ : ويح الرجال هكذا هم يبذلون قلوبهم ومُهَجَ أفئدتهم لأي شيء يَعزُّ عليهم نيله وإذا نالوه قلبوا له ظهر المجن .

ثم نظرتْ إلى الكتابة المنحوتة مرة أخرى وقالتْ : لو قُيِّضَ لهذا الرجل لقاء من كتب فيها هذه لسئمها واجتواها ولكن للحرمان فضل في إيقاظِ الحنين ، وإضرامِ جمره ، وإيقادِ نار أتونه .

ثم اتكأتْ على جذع شجرة الزان ورفعتْ رأسها إلى السماء وقالتْ : لقد امتدتْ جذوري عبر شطِّ هذا النهر ، وتمايلتْ أوراقي مع هبات نسيمه ، وكم كنتُ بلهاء عندما اعتقدتُ أن هذا النهر هو المناسب ، ولكن حظي السيئ رماني على شطه فوارحمتاه لي على ما دهاني .

لم تبرحْ مكانها حتى مالت الشمسُ للمغيب وهي تُفكِّر بهذه الكتابة وتتساءل هل هي من كتابة زوجها أم لا ؟ وإن كان هو الذي كتبها فمتى حدث هذا ؟ وهل ما زال يهوى من كتب بها هذه أم لا ؟

لم تَصْحُ من أفكارها إلا على طيفٍ يلوح من البعد فأحدَّت النظر إليه فلم تعرفه حتى إذا اقترب تبيَّنته فإذا به زوجها وعندما وصل إليها بادرها قائلاً : أين أنتِ ؟ لقد بحثتُ عنكِ في كلِّ مكانٍ ولم أجدكِ ؟ ثم لماذا خرجتِ ؟ ألم أطلب منكِ ألا تبرحي الفراش ؟ لماذا خالفتِ ما أُمرتِ به ؟ وأيضاً ما الذي أتى بكِ إلى هذا المكانِ المنعزلِ المهجور ؟ قالتْ : شعرتُ باختناقٍ وضيقٍ في الصَّدر فخرجتُ لأستنشق الهواءَ النقيَّ وكنتُ أجول بين الحقول ولم أشعرْ بنفسي إلا وأنا في هذا المكان الجميل الهادئ .

سرح بفكره بعيداً وأشاح بنظره إلى شجرة الزان وقال في سره : كنتُ ألتقي بالصبية هنا ، وألعب معها ونلهو ونضحك على الرجال الذين يعملون في حقولهم ، والذين يرعون أغنامهم ، ونتندَّر بالنساء اللاتي يحملن القرب المليئة بالماء ، وتلك العجوز الغريبة الشكل ، الشمطاء الشعر ، المحدودبة الظهر ، المتجعدة الوجه ، التي تأتي على حمار كل

أصيل ما شأنها يا ترى ؟ وما شأن حضورها هنا ؟

نعم ، نعم ، إنها عجوزٌ تَجْلبُ الزِّينة للنساء من الكحل ، والأسورة ، والقلائد الفضية ، والأقراط الذهبية ، ولكن يندر من يشتري منها .

ثم قال بصوتٍ مسموعٍ : كم أحنُّ لتلك الأيام التي نلهو بها ، بل كم أَحِنُّ لمرأى تلك العجوز التي تأتي إلى هنا لبيع ما معها وتهبنا في أحايين قليلة بعض الحلوى .

ثم نظر إلى درلفر وابتسم ثم قال : هذا تأويلُ الحلم الذي تكرَّرَ فلا داعي للتفكير وإفساح مجال للوساوس .

ثم أمسك بيدها وقفلا عائدين إلى المنزل وعندما وصلا ودخلا اتجهتْ درلفر للمخدع واتجه برلنور إلى العلية في الطابق العلوي وأشعل المصباح واتجه إلى منضدةٍ عتيقةٍ وفتح أحد أدراجها وأخرج بعض قصاصات الورق كعادته كل ليلة ليكتب على ضوء المصباح بعضاً مما يختلج بقلبه .

أمسك بالقلم وكتب : كم كنتُ ...

ثم سرح بفكره بعيداً عن الكتابة وبدأ يُحدِّثُ نفسه بصوتٍ مسموعٍ لماذا يحدث لي هذا ؟ فمنْذُ عدة ليالٍ وهذا الأمر يوافيني كلَّ ليلةٍ فلم يا ترى ؟

ثم أخرج عدة قصاصاتٍ عتيقةٍ وبدأ يقرؤها فإحداها مكتوبٌ فيها : عندما صبوتُ إليكِ في عهد الصِّبا جعلتُ الوصل سفتجة إلى الشباب وها أنذا أوشكتُ على طيّه فهل أَمُدُّ في أَمَدِ السُّفْتَجَة إلى الشيخوخة أم يحولُ الأجل دون تقاضيها .

وفي أخرى مكتوبٌ : مذْ صبوتُ إليكِ في عهد الصِّبا لم أَحُلْ عن هواكِ قط وها هي الأيامُ تمضي ، والأعوامُ تنقضي ، وأنا أنتظر ولن أملَّ ، ولن أَكِلَّ من الانتظار حتى تملَّ الشمسُ من الشروق ، والقمرُ من البزوغ ، والبدرُ من الاكتمال ، والنجومُ من اللمعان ، والمطرُ من الهطلان ،

والدمعُ من الوكفان ، والقلوبُ من الخفقان ، والفراقُ من تبديدِ الشَّمْلِ ، والحبُّ من غزو القلوب ، والهجرُ من حرق الأفئدة .

وتوقف عند التي تليهما وقرأها عدة مراتٍ ولم يرفعْ بصره عنها وهي : ظلموكِ والرب حين شبهوكِ بالوردةِ ، والنَّرجسِ ، والشادن ، والجؤذر ، والشمس ، والقمر ، والليلِ الأسحمِ ، والنهارِ الوضَّاءِ ، وخاتم سليمان ، وخوط البان ، وحُقَّ العاج ، والبلَّور ، وغيرها من الأوصاف ، وكان الأجدر بهم لو شبهوها بكِ ، فمثلكِ يضرب بها المثلُ ، ولا تشبَّه بالأشياء ، بل تشبَّه الأشياء بها ، وإنه لينتابني العي، وتكتنفني الحيرة حينما أريد أن أبعث لكِ سلامي وحنيني فهل أبعثهما مع القمر وأنتِ نوره ؟ أم مع الورد وأنتِ شذاه ؟ أم مع الهواء وأنتِ نسيمه ؟ أم مع الصباح وأنتِ نداه وضياه ؟ أم مع ماذا ؟ فإني ما ذهبتُ إلى شيءٍ إلا ووجدتُ فيكِ أجمل صفاته وأرقها وليس فيه من صفاتك شيء فهن إما جمادات ، أو عجماوات .

وضعها على المنضدة وأسند رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه ليستعيد ماضٍ عفا عليه الزمن ودفنته سافيات تقادم العهد .

مضتْ عدة أشهر لم يحدثْ خلالها ما يريب وفي صباح أحد الأيام قال برلنور لزوجته : سنذهب في رحلةٍ على متن باخرةٍ فاحزمي الأمتعة فغداً ستنطلقُ الباخرة وخذي معكِ بعض العقاقير فإني أخشى أن يُؤَثر تغير الجو على ابننا رستلوف .

سألته قائلة : إلى أين نحن ذاهبون ؟ وهل ستطولُ الرِّحلة ؟

أجابها قائلاً : سنمضي إلى جزيرةٍ زرتها من قبل أعجبتني أيَّما إعجابٍ وربما يَطولُ مكثي فيها .

لم تستطع المخالفة فانصاعتْ لرغبته على مضض وطمأنته إلى أنها

ستنهي حزم الأمتعة في الصباح الباكر .

في صباح اليوم التالي حملوا الأمتعة واتجهوا إلى الباخرة واستقلوها متجهين إلى الجزيرة التي تبعد عن ديارهم قرابةَ العشرة أيامٍ وعند وصولهم إليها رست الباخرة ونزل منها برلنور مع عائلته واتجه إلى أصدقائه في الجزيرة الذين استقبلوه بالحفاوة وأقاموا له ولعائلته مأدبةً فاخرةً أسْعَدَتْهُم وأنْسَتْهُم مشقَّة السفر وأعدوا له أحد الأكواخ وعندما انتهوا من إعداده انتقل إليه وسكن فيه ووضع أمتعته في غرفةٍ صغيرةٍ ووضع كتبه التي أحضرها معه في خزانةٍ أعدوها لكتبه .

سكنتْ بلابل دراقر ، وأفرخ روعها ، وضحكتْ على سذاجتها ، وتخمينها الخاطئ تجاه زوجها ، أما ابنهما رستلوف فأَنِسَ بالجزيرة وبأندادِه فيها فصاحبهم وتعلَّم لغتهم حتى أتقنها وبدأ يَقُصُّ عليهم بعض الحكايات التي قرأها فأنسوا به والتفوا حوله عدا دريال الذي أطلق عليه لقب الحالم ونفر منه ، ولم يُحبِّذْه ، ولم يُخْفِ تبرمه إن رأى صديقه العزيز هاردل معه ، وضجره إن رآهما يتحدثان ويضحكان ، وكان يتعجب إن رأى رستلوف وحده مع أترابه دون هاردل فيبحث عنه في الأماكن التي يرتادها فلا يجده وكان اختفاء هاردل في بعض ساعات اليوم سرًّا من الأسرار عند دريال يود لو علمه ولم يَعْلَمْ أن الأيام كفيلة بإظهار ما خفي عليه .

❖❖❖❖❖❖❖

الحيـرة

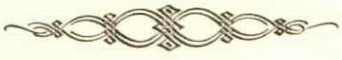

وقف هاردل أمام البحر ورمى حجراً وبدأ يرقبه وهو يغرق ثم استلقى على ظهره وبدأ ينظر إلى السماءِ والطيورِ المحلِّقَةِ في الجوِّ ويُحدِّثُ نفسه قائلاً : كم وددتُ لو كان لي جناحان لأعرف ما وراء البحر من ديار!

أفاق من شروده على صوت دريال وهو يقول : أنتَ هنا يا هاردل وأنا أبحثُ عنك ؟

نظر هاردل إلى صديقه المقرب إليه جدَّاً دريال وقال له : ماذا تريد مني ؟

قال دريال : ما الذي أتى بكَ إلى هنا ؟

نظر هاردل إلى البحر ثم رفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى البحر مرةً أخرى ثم قال : إني أبحث عن القواقع ولكني لم أَجِدْ منها شيئاً .

قال دريال : لا تُواربْ يا هاردل فأنتَ في الآونةِ الأخيرةِ تُكثرُ الانفراد في أماكنَ نائيةٍ وتتجنَّب التجمعات والجلوس مع أترابك .

أجاب هاردل : إنك تَتَوهَّمُ يا صديقي .

رد دريال قائلاً : قدومكَ إلى هذا المكان دليلٌ على ما أقول فحدِّثني عما يعتلجُ بقلبك .

صمتَ هاردلُ وأطال الصَّمتَ فاستحثَّه دريالُ على الحديث والكلام فقال : لن أُخْبركَ حتى تُعاهدني على ألا تُخبرَ أحداً عما سأُحدِّثكَ به .

أعطاه ما شاء من العهود والمواثيق أن يُبقي حديثه طيَّ الكتمان ، ويظل دفيناً في قلبه لا يُبعث ، فبدأ هاردل الحديث قائلاً : لا أخفيكَ يا صديقي العزيز أني سئمتُ المكوثَ هنا واجتويتُ هذه الجزيرة وأريد أن أستكشف ما وراء هذا البحر من ديار .

ألجمت المفاجأةُ دريالَ فلم ينبسْ ببنت شفة وأكمل هاردلُ حديثه قائلاً : ومنذُ مدةٍ طويلةٍ وأنا أخلو بنفسي لأجد طريقةً أغادر بها هذه الجزيرة النائية .

بعد عدةِ دقائقٍ قال دريالُ : وما الذي دعاكَ إلى التفكير بهذا الأمرِ الغريب ؟

قال هاردل : إننا الآن في وقت الأصيل ولا أستطيعُ التأخُّرَ عن الكوخ أكثر من هذا وإلا تعرَّضتُ للتوبيخ والعقاب ولكن موعدنا غداً صباحاً في هذا المكان .

ثم غادر المكانَ بسرعةٍ تاركاً دريال غارقاً بأفكاره يَتَأرْجحُ بين التَّصديقِ والتكذيبِ مما سمع .

ذهب دريالُ إلى كوخه والإرهاق بادٍ عليه وعندما وصل وولج إلى الداخل وجد أباه يُعِدُّ القوسَ والنُشَّابَ وعندما حاذاه التفتَ إليه وقال له : سأذهب مع بعض الرجال للصيد وسأغيبُ عدةَ أيامٍ فلا يأتِ عليك الأصيلُ إلا وأنتَ في الكوخ فالجزيرة مليئة بالوحوش الكاسرة فكن على حذرٍ يا بني وامتثلْ ما أمرتُكَ به .

قال دريال : صحبتكم السلامة وسأمتثل ما أمرتني به فاطمئن .

أحضرت الأمُّ قصعةَ الطعامِ فتحلقوا حولها وبدؤوا الأكل ولكن دريال بادٍ عليه الشحوب والتفكير العميق فالتفتَ إليه أبوه وقال له : لماذا لا تمد يدك إلى القصعة ؟

لم يُجِبْ دريال بل لاذ بالصمت فأعاد الأب السؤال فقال دريال : لدي عدة أسئلة يا أبي حيرتني كثيراً وأخشى أن تغضب إن سألتُكَ إياها .

قال الأب : لا عليكَ يا بني سلْ عما شئتَ وسأجيبك .

قال دريال : ماذا يوجدُ خلف البحر ؟ وهل هناك أناسٌ غيرنا في هذا الكون الفسيح ؟ وإن كان هناك أناسٌ غيرنا يعيشون خلف البحر فهل هم مثلنا أم تختلف معيشتهم وطريقة حياتهم عنا ؟

سقطت اللقمةُ من يد الأب في القصعة من شدة الارتعاش وقال والغضب

بادٍ عليه : من الذي أدخل هذه الأفكار الغريبة إلى رأسك ؟

رد دريال قائلاً : ألم تُخبرني أنكَ لن تغضبَ وستُجيبَ على أسئلتي .

قال الأب : لقد وُلدْنا كما وُلِدَ آباؤنا وأجدادنا ، وسنعيش كما عاشوا ، وسنموت كما ماتوا على هذه الأرض المباركة التي درجوا عليها وأكلوا من خيراتها ، وشربوا من أنهارها ، ثم عادوا إلى حضنها ليرقدوا فيه بسلام .

رد دريال قائلاً : وهل هذا دليلٌ على أنه لا يوجد إلا نحن على هذه البسيطة ؟ ثم كيف عادوا إلى حضن الأرض ليرقدوا فيه بسلام ؟ ثم أليس في رحيل خالي الذي تَحِنُّ إليه أمي كثيراً دليلٌ على وجودِ بلدانٍ أخرى ؟

هبَّ الأبُ واقفاً من شدَّةِ الغضبِ الذي لم يستطعْ كبحه وقال : ويحكَ أيها المتمرِّدُ الصغيرُ من الذي عبَّأَ رأسكَ بهذه الأفكار السخيفة ؟ ثم من الذي حدثكَ عن خالكَ وأخبركَ برحيله إلى بلدٍ آخر ؟

صمتَ دريالُ وأطرقَ برأسه إلى الأرض ثم رفعه وقال : عذراً يا أبي فلم أقصدْ إغضابكَ ، أو الاستهانة بِكَ أو بأجدادكَ الذين ماتوا ، وإنما هي مجرَّدُ أسئلةٍ خطرتْ لي هذا اليوم فسألتُكَ إياها وأعاهدكَ ألا أعود إليها مرة أخرى .

أعاد الأبُ سؤاله قائلاً : من الذي حدثكَ عن خالكَ وأخبركَ برحيله إلى بلدٍ آخر ؟

أجاب أباه قائلاً : حديثٌ بينكَ وبين أمي ذات ليلةٍ قبل عدةِ أشهرٍ عندما كانتْ تبكي وتَحِنُّ إلى أخيها ، فهدأتَ من روعها ، وأخبرتَها أنه سليمٌ معافى في بلدٍ يدعى رفنسا ، أو سرفنا ، أو اسمٌ قريبٌ من هذا .

جلسَ الأبُ وبدأ يتناولُ طعامه وعندما انتهى قال : سأذهب مع بزوغ الفجر فلا تنسَ ما أوصيتُكَ به .

ثم نهضَ وذهبَ إلى فراشه وأسلمَ عينيه للكرى ونهضَ دريالُ تاركاً أمه تنظف المائدة واتجه إلى فراشه وبدأ يُفكِّرُ بما سمعه من أبيه ونام وهو يُفكِّرُ بما سمع .

مع ظهور تباشير الفجر الأولى نهض الأبُ من نومه وألقى نظرةً على ابنه النائم ثم أخذ قوسَه ونشَّابَه وذهب إلى حيث موعد لقائه بأصحابه وعند وصوله وجد الجميع بانتظاره فبدؤوا المسير وكان الغضبُ بادٍ على محياه فسأله أحدهم قائلاً : لماذا الغضبُ بادٍ عليكَ يا آرثر ؟

نظر آرثر إليه نظرة ذات مغزى فذُعِرَ الرَّجُلُ وصمتَ وعندما تعالى الضحى وجدوا شجرةً ذاتَ ظلٍّ ظليلٍ فاتجهوا إليها وبدؤوا تناول الفطور ثم نهضوا وأكملوا سيرهم وقبيل العصر بقليلٍ وصلوا إلى المكان المطلوب فوجدوا الظِّباء والطُّيور فتفرَّقوا لصيدها ورمى آرثرُ سهماً فأخطأ فقال : سحقاً لدريال وتبَّاً هذه بداية سوء الطالع بسبب ترَّهاته البارحة .

تعجب فرندل وقال : أخبرني بما حدث .

قال آرثر : أتى إلي ابني دريال مساء الأمس شاحب الوجه على غير عادته ، وعندما بدأنا بتناول الطعام سألني عما يوجد خلف البحر ، وهل هناك أناسٌ غيرنا وكيف طريقة عيشهم وترهات أخرى مثل هذه .

تبسم فرندل وقال : وما الضير من أسئلته فليسأل متى رغب ، وليُفْضِ إليك بمكنون قلبه ، وما يعتلج بصدره .

قال آرثر : إني أخشى ...

ثم ظهر لهم قطيعٌ من الظباء فرماها فأصاب إحداها فهرع إليها مسرعاً وأمسكَ بها ثم أحضرها إلى مكان جلوسهما وذكاها وعلقها على غصن الشجرة ثم التفت إلى فرندل وقال له : لِمَ لَمْ تَرْمِ الظباء التي ظهرتْ ؟

قال فرندل : لقد أقلقني حديثُكَ قليلاً ونَحْنُ سنمكثُ عدةَ أيامٍ هنا

وسأصطاد ما أشاء فأكْمِلْ حديثك .

أكملَ آرثرُ حديثه قائلاً : إني أخشى أن يُفكِّرَ دريالُ بالسفر وهجر الجزيرة كما فعل خاله من قبل .

تمعَّرَ وجه فرندل وقال : ذلك الوغد كيف تجرؤ على ذكره أمامي ؟

تبسم آرثر وقال : أحاديثٌ يجر بعضها بعضاً وقد مضى على جريرته ورحيله من الجزيرة خمسة عشر عاماً فلننسَ الماضي وأحداثه ولنهتم بالمستقبل .

قال فرندل : عذراً يا صديقي فقد غضبتُ لما فعله ذلك الوغد قبل خمسة عشر عاماً حين سرق بندقيتي وذخيرتها وسيفي وأبحر بقاربي وأنتَ تعلم قدر البندقية عندي وأني لا أُؤثر عليها شيئاً فاعذرني .

تبسم آرثر فقال فرندل : والآن أخبرني ببقية حديث ابنك .

أكمل آرثر حديثه قائلاً : كنتُ أمر بالأطفال في بعض الأحيان فأجدهم متحلقين حول بعضهم البعض يتحدثون ويضحكون ولا أجد ابني معهم وعندما أبحث عنه أجده في ركنٍ قصيٍّ مع ابنك هاردل يتناجيان وأخشى أن يكونا مُتفقَين على هذه الأفكار ، وأنهما يخططان للرحيل من الجزيرة واستكشاف ما وراء البحر .

ثم صمت قليلاً وظهرتْ عليه أماراتُ الرُّعْبِ فسأله فرندل قائلاً : بماذا تفكر يا صاحبي ؟

نظر إلى فرندل والرعب بادٍ عليه وقال : لقد علَّمتُ ابني كيف يُبْحِرُ بالقارب وأخشى أن يُفكِّرا بالإبحار به .

هبَّ فرندل واقفاً فقال له آرثر : ما الذي دعاك إلى الوقوف ؟

قال فرندل : حديثٌ طرق سمعي ذات ليلةٍ بين هاردل وأمه .

استحثه آرثر على الحديث والإفضاء إليه بمضمون ما تناهى إلى سمعه

فتحدث قائلاً : أرقتُ ذاتَ ليلةٍ فطرق سمعي صوت هاردل وهو يسأل أمه قائلاً : أماه رأيتُ أني أبحرتُ بسفينةٍ إلى بلدٍ مليءٍ بالناس والعجب في هذا أني كنتُ أرتدي ملابسَ كملابسهم من كتَّانٍ لا من جلدٍ وصوفٍ ، وكأني في منزلٍ فسيحٍ مبنيٍّ من أحجار ، وبه زجاجٌ يُفْتحُ من الداخل فعجبتُ من هذا ، فماذا تظنين هذا يا أمي ؟

ولهذا أنا أخشى أن يهتبلا فرصة غيابنا ويُبحرا بالقارب كما تظن يا آرثر .

لما دنا الأصيل أتى الرِّجالُ يحملون الصيد على ظهورهم وتعجبوا من آرثر وفرندل اللذين لم يصطادا إلا ظبيةً واحدةً ثم أشعلوا النار وبدؤوا شوي اللحم فلما نضج تناولوه ثم جلسوا يتسامرون قليلاً فقال آرثر : أعتذر إليكم أيها الأصدقاء فإني سأعود إلى الكوخ لأمرٍ طارئٍ لا يحتمل التأخير ، وسأذهب أنا وفرندل ونعدكم برحلةٍ أخرى نكونُ فيها على أتم الاستعداد .

قال أحد الرجال : لم لا تمكثان الليلة هنا ومع الفجر تذهبان فالغابةُ في الليل خطرةٌ جدًّاً كما تعلمان بسبب انتشار الحيوانات المفترسة .

رد فرندل قائلاً : نحن جميعاً أبناء هذه الجزيرة ونعرفها كما نعرف باطن أكفِّنا فلا تخشوا علينا شيئاً .

ثم حملا أمتعتهما وسارا وكلُّ واحدٍ منهما تَجَلْبَبَ بالصمت فلا يقرع آذانهما إلا وقع أقدامهما على الحشائش ، والورق المتساقط من الأشجار ، وبغام ظبية من بعيد ، وفحيح أفعى على بُعْدِ أمتارٍ منهما ، فأغذا السير ، وحثَّا الخطى ، ومع شروق الشمس وصلا إلى كوخيهما فأخلدا للنوم من شدة الإعياء الذي لحقهما من سير الليل بأكمله .

عندما تعالى الضحى استيقظ دريال فغسل وجهه ثم تناول إفطاره ثم ذهب

إلى الشاطئ فوجد هاردل بانتظاره فسأله عن السبب في عدم حضوره صباح الأمس فاعتذر بأنه انشغل في زرع الحقل مع والدته ثم سأله عن حكايته وسبب تفكيره بالرحيل من الجزيرة فبدأ هاردل الحديث قائلاً: لا تعجب يا صديقي العزيز مما سمعت مني مساء ما قبل الأمس لأني أطلتُ التفكير فيما أراه وأسمعه وما يدور حولي من أحداث وهاأنذا في السادسة عشرة من العمر وقد حزمتُ أمري ولكن لم تَحنِ الفرصةُ المناسبةُ بعد .

قال دريال : ولكن هذه الجزيرة أكلتَ من خيراتها ، وشربتَ من مائها ، وتنفستَ هواءها وأهلكَ على ظهرها ، وأجدادكَ في باطنها فكيف لكَ أن تهجرها ؟ وكذلك لا يوجد مكانٌ آخرُ كما قال أبي فإلى أين تذهب ؟

قال هاردل : يا صديقي العزيز إني لعلى يقينٍ تامٍ أن هناك بلداناً أخرى .

قال دريال : وكيف أيقنتَ من هذا ؟

قال هاردل : ألا تراني أَؤُمُّ الشاطئ كثيراً ؟

قال دريال : لا ، لم أرك ولكني لاحظتُ كثرة تَغيُّبكَ عن أماكنَ التقائنا وتجمُّعنا ولا أعلم إلى أين تذهب ولولا الصدفة قبل يومين لما علمتُ أنكَ ترتاد هذا المكان .

قال هاردل : لقد رأيتُ عدةَ مراتٍ سُفُناً تمخرُ عُبابَ البحر وهذا دليلٌ على وجود بلدانٍ أو جزرٍ أخرى .

هز دريال رأسه علامة الموافقة على قوله ثم قال : ولكنكَ لم تُجِبْ على سؤالي لماذا عزمتَ على هجر الجزيرة ؟

وضع هاردل يديه خلف رأسه ثم استلقى على الأرض ثم بدأ الحديث قائلاً : قبل عدةِ أشهرٍ تناهى إلى سمعي حديثٌ بين أبي وأبيك تحدثا فيه عن خالكَ الذي رحل عن الجزيرة إلى بلادٍ خلف البحر وأصبح

من نبلائها وأثريائها ، ولا أُخفيكَ يا صديقي العزيز أني أطمح إلى الجاه والمنصب ، ولي عدة أشهرٍ والأحلام تراودني أثناء نومي بأني في قصرٍ أفيحَ لي فيه الأمر والنهي ، وأني سيدٌ نبيلٌ يُذعنُ الناسُ لأمري ويمتثلوه .

ضحكَ دريالُ بشدة وقال : إنك تحلم فارضَ بما أنتَ فيه ودع عنك الأحلام .

لم يُجبْ هاردل على هذه السخرية فنهض دريال وطلب منه أن يأتي معه إلى حيث ملتقى أترابهما ليتحدثا فكلهم في شوقٍ عارمٍ إلى حديثه ونوادره ، فاعتذر وأخبره أن لديه عملاً مع أمه ويجب عليه إنجازه ، ثم ذهب إلى الكوخ تاركاً دريال في حيرته .

في أثناء الطريق وجد نيرمال عند الكوخ مع أمها فعاج عليهما وعندما رأته نيرمال نهضتْ إليه فانتحيا عند زاوية الكوخ وبدآ الحديث وعلتْ بينهما الضحكات ، وأتى أثناء ذلك آرثر فرآهما يتناجيان ويضحكان فابتسم وقال لزوجته : إنهما زوجان ملائمان ويُحبَّان بعضهما كثيراً فمتى يطلب فرندل ابنتي لابنه ؟

تبسمت الأم وقالتْ : ما زالا صغيرين على الزواج .

قال آرثر : أنسيتِ يا عزيزتي عندما اقترنْتُ بكِ كنتِ في الرابعة عشرة من العمر .

ابتسمت الأم وقالتْ : لقد مضت الأعوامُ بسرعة .

قال آرثر : ومع ذلك ما زلتُ أُحبكِ يا عزيزتي .

خجلت الأمُّ وقالتْ : سأذهبُ لإعداد الطعام .

ثم نهضتْ وابتسامةٌ عريضةٌ تَرتسمُ على مُحيَّا آرثر .

❖❖❖❖❖❖❖

القـــرار

كان الأب يُراقبُ ابنه ولم يجد عليه تغيُّراً ملحوظاً فكان يساعد أمه في الحقل ، أو يذهب إلى ملتقى أترابه ، وفي بعض الأحيان يذهب إلى الشاطئ ، وفي بعض الأحيان يجده مع دريال أو رستلوف يتحدثان ويقهقهان ، وفي بعض الأحيان يراه مع نيرمال في الحقل يتلاحقان أو يضحكان ، فاطمأن إلى أن ظنونه لا أساس لها ، وما هي إلا وساوسُ اعترته وزالتْ .

مضت الأيام رتيبة لا أحداث فيها ، فكان الأب يذهب إلى الصيد في أوقاتٍ معينةٍ مع بعض الرجال عندما يَقلُّ الطعام عندهم ، وفي بعض الأحيان يذهب مع آرثر لصيد السمك ، وفي بعض الأحيان يعمل في الحقل وبعد غروب الشَّمس يُخْلدُ للمبيت وينهض مع بزوغ الفجر .

ذهب الصيفُ ، وتلاه الخريفُ ، وأتى الشتاءُ وكان شتاءً قارصاً شديد الصقيع ، هاج فيه البحر وماج ، والتطمتْ أمواجه ، وفي إحدى الليالي سمع أهل الجزيرة أصوات استغاثة فهبَّ الرجال من مراقدهم وخرجوا إلى جهة الصوت ، فرأوا عدة رجال ونساء وأطفال فاتجهوا نحوهم وسألوهم عما بهم فتقدم أحدهم وكان طويلَ القامةِ ، نحيفَ الهامةِ ، ممشوقَ القوامِ ، ذا شعرٍ أشقر ، وبشرةٍ بيضاءَ مشوبةٍ بحمرةٍ ، فأخبرهم أن الأمواج جرفتْ سفينتهم إلى هذه الجزيرة ويريدون الاستراحة عندهم بضعة أيام وبعدها يبحرون فوافقوا وضاف كلُّ كوخٍ عائلةً ، وكانت العائلة التي سكنتْ مع عائلة هاردل تتكون من الأب والأم وابنة خلابة الجمال تدعى مارينا .

هيأ الأب والأم مكان النوم لعائلة مارينا ثم أسلموا أعينهم للكرى ، وفي صباح اليوم التالي على مائدة الإفطار سأل فرندل ضيفه قائلاً : ما الذي أتى بكم إلى هذه الجزيرة النائية ؟

رد الضيف قائلاً : نحن من بلادٍ تدعى فرنسا وقد قمنا برحلةٍ سياحيةٍ على متن إحدى السفن ، ولكن العاصفة ثارتْ واشتدتْ مما حدا بربانها إلى الرسو على هذه الجزيرة خشية الأذى والضرر .

كاد فرندل يغص باللقمة عندما سمع هذا الحديث ونقل بصره إلى ابنه هاردل فوجده يتحدث مع مارينا ويقول لها : بعد الإفطار سأعرفكِ على الجزيرة .

تنفَّسَ الصعداء إذْ أن ابنه لم يسمعْ حديث الضيف وأكملا حديثهما ، وكان فرندل ينظر إلى أبي مارينا بدهشةٍ وانبهارٍ فلاحظ هذا وقال له : لم هذه النظرة الغريبة المرتسمة على محياك ؟

أجابه قائلاً : إني متعجبٌ أشد العجب من إلمامك بلغتنا وأنتَ لستَ من جزيرتنا .

أجابه قائلاً : لقد قمتُ برحلة استكشافية مع بعض العائلات في بلادنا وعرَّجنا على عدة جزرٍ قريبةٍ منكم ومكثنا قرابة التسعة أشهر وهذا ما دعاني إلى معرفة لغتكم والتحدث بها بطلاقة وكذلك زوجتي وابنتي مُلمَّتان بها .

بعد الانتهاء من الإفطار خرج هاردل بصحبة مارينا وذهب معها إلى الشاطئ وجلسا ثم قال هاردل: سمعتُ أباكِ يتحدث مع أبي ويخبره أنكم أتيتم من فرنسا ، وأنكم اضطررتم للرسو على هذه الجزيرة بسبب العاصفة .

قالتْ : نعم ، وقد رحلنا منْذ ما يزيد على الأسبوعين وسنمكثُ هنا مدةً تزيد على العشرة أيام قليلاً .

قال لها : حدثيني عن بلادكِ وعاداتهم وطريقة عيشهم .

قالتْ له : ألن نخرج لاستكشاف الجزيرة ؟

رد عليها قائلاً : سنستكشفها فيما بعد ولكن حدثيني عن بلادكِ فأنا في شوقٍ عارمٍ لمعرفة الكثير عنها .

أجابته قائلة : إن بي من الشوق لاستكشاف الجزيرة ، ومعرفة مجاهلها ، أكثر مما بكَ من الشوق لمعرفة بلادي .

رد عليها قائلاً : أعدكِ أن نستكشفها بعد أن تحدثيني .

بدأت الحديث عن بلادها وعاداتهم وكان كثيراً ما يقاطعها هاردل ليسألها فتجيب والامتعاض بادٍ عليها ، وبعدما انتهتْ من حديثها ذهبا سوية للتجول في الجزيرة واستكشاف مجاهلها فأراها الكهف الذي يلعب به مع أترابه والذي اكتشفه عندما تبع أباه في أحد الأيام فتاه عنه ، وأراها كذلك الشجرة العظيمة التي ينصبون عندها فخاخهم لصيد الطيور والأرانب ، وذهب بها إلى الجدول الذي يقيمون في بعض الأحيان وليمة على ضفته ، وعندما وصلا إلى ساحةٍ واسعةٍ وقف وأشار إلى الجهة المقابلة لهما وهي غابة كثيفة الأشجار وقال : الذهاب إلى هناك محظورٌ علينا وذلك لكثرة الحيوانات المفترسة ولكن آباءنا يذهبون في بعض الأحيان لصيد الحيوانات وجلبها عندما يقل الطعام .

عندما دنا الأصيل عادا فوجدا الجميع ينتظرونهما على مائدة الطعام فجلسا وتناولا الطعام ثم أخلدا للمبيت .

انقطع هاردل عن أترابه واستبدَّ القلقُ بنيرمال فأتتْ تبحثُ عنه فوجدته يُحادثُ مارينا ويُضاحكها فعادتْ أدراجها دون أن يلحظها أو يراها ثم سمعا صوت فرندل وهو يقول : سأذهب لصيد السمك يا هاردل وسيذهب برلنور إلى الترجمة لأهل الجزيرة كعادته وقد لا يأتي إلا في الأصيل فلا تُطيلا المكث هنا والحديث واذهبا لمساعدة أمك وأم مارينا .

قال هاردل : كما تشاء يا أبي .

ثم التفت إلى مارينا وقال لها : حدثيني عن بلادكِ أكثر فأكثر .

قالتْ له : إن أمركَ عجيبٌ يا هاردل .

سألها قائلاً : لماذا يا مارينا ؟

ردتْ قائلة : إنك تُكْثرُ من السؤال عما نأكل ونشرب ونلبس ، وماذا نسكن ، وماذا نُزاول من أعمال .

ثم صمتتْ قليلاً ثم قالتْ وهي تبتسم : لم يبقَ إلا أن تسألني عن طريقة موتنا وإلى أين نذهب بعد الموت .

قطَّب جبينه وأشاح بناظره عنها وقد استسمج منها هذه الدعابة وشعرتْ مارينا أنها أخطأتْ فقالتْ : عذراً ولكنك تكثر من السؤال وكأنك ستذهب إلى بلادي .

ابتسم وقال : من يعلم ما يُخبؤه لنا القدر .

قالتْ : سلني عما شئت وسأجيبك .

قال : لقد أخبرتني أنكم تسكنون في منازل من الآجُر تتكون من طابقين ، وأمامها حديقة صغيرة تزرعون فيها الأزهار وتعتنون بها يوميًّاً فتسقونها الماء ، وتزيلون الأعشاب الضارة ، وأنكم تأكلون وتشربون ألواناً من الطعام والشراب لا توجد على هذه الجزيرة ، وتلبسون الكتان والحرير ، وتعتمرون القبعات وبعض النساء يَضعْنَ عليها بعض الريش للزينة ، وفي بعض أيام الإجازات تذهبون إلى شاطئ البحر للنزهة فبعضكم يمارس هواية السباحة ، وبعضكم يستلقي على رمال الشاطئ ، والأطفال يتراكضون بمنةً ويسرةً ، ويتراشقون بالماء ، وأنكم تُزاولون مختلف الأعمال فمنكم من يبيع الزهور ومنكم من يطهو الطعام في مكانٍ يرتاده الناس ويؤمونه ، ومنكم من يُدرِّسُ في معاهدَ خاصة ، وتُغلقُ الحوانيتُ بعد حلول الظلام بقليل والقليل من يَفْتحُ إلى وقت العتمة .

ردتْ قائلة : نعم ، لقد حدَّثتكَ بهذا مراراً وتكراراً .

قال لها : إنْ كنتِ غاضبةً فسأصمتْ .

قالتْ : لا ، لا عليك سل عما بدالك .

قال لها : بقي لدي سؤالٌ واحدٌ فقط وهو كيف الناس هناك ؟

أجابته قائلة : لم أفهم مغزاك من هذا السؤال فماذا تقصد ؟

رد عليها قائلاً : أقصد هل الناس عندكم سواسية ؟

أجابته قائلة : الناسُ عندنا طبقاتٌ كحال البشر في كل أصقاع المعمورة فعندنا الشريف والوضيع ، والنابه والخامل ، والثري والفقير ، وعندنا الملوك ، والوزراء ، والنبلاء .

ابتسم ثم قال : هيا لنساعد أمي في الحقل .

عندما ذهبا سمع صوت نيرمال تُناديه فالتفتَ إلى جهتها ، ثم عدا مُسرعاً إليها ولم يلحظ التَّجهُّم الذي كسا وجه مارينا .

أقبل إليها وأمسك بيدها وقد اتَّزر بإزار الصمت فجذبتْ يده فسار معها طائعاً فاتجهتْ إلى المكان الذي يلتقيان عنده تحت الشجرة الضخمة وجلسا والصمتُ يلفهما بردائه فالتفتَ إليها فرأى دموعها تنساب على وجنتيها ، فأطرق برأسه وصمتَ وقد اجتاحته موجةٌ عارمةٌ من تأنيب الضمير لتغيُّبه عنها طيلة الأيام الماضية وذهابه مع مارينا .

طال الصمتُ بينهما ولما سئم قال : لقد اقترب موعد رحيل مارينا .

ردتْ عليه قائلة: أساءكَ هذا وكدَّرَ صفوكَ فأتيتَ تبثني شجن قلبك لقرب رحيلها ؟ أم أتيتَ لتخبرني بمدى حبكَ لها وصبوتكَ إليها ؟

رد عليها قائلاً : لا عليكِ سيذهبون بعد غدٍ وما هي إلا ذكرى تزول مع الأيام .

ردتْ قائلة : إن لبعض القلوب جُنوحاً للذكرى وحنيناً إليها لا يبرحها ،

وربما تمادى مع الأيام فخالط شغافها واستحوذ عليها .

أجابها قائلاً: إنكِ تعلمين قدركِ عندي ، وتعلمين مدى حبي لكِ وهيامي بكِ .

ردتْ قائلة : ربما كان هذا حقيقة قبل قدوم مارينا .

امتعض وقال : وهل تَشكِّين بإخلاصي ومحبتي لكِ .

لم تُجبْه وإنما نظرتْ إلى جهة الحقل ثم قالتْ : ما أعجب القلوب إنها تتمايل مثل تمايل أغصان الذرة مع هبَّات النسيم يمنة ويسرة فتُحبُّ هذا ، وتصبو إلى ذاك ، فلا تستقر على حال .

أتذكر أصيل ذلك اليوم الذي كنا فيه عند البحر عندما قلتَ لي والموج يلتطم بعضه ببعض : إن حبكِ كالموجِ الهائج .

صدقتَ إنه كالموجِ الهائجِ الذي سُرعان ما هدأ وسكنَ ، ولو كان حبكَ لي متأصِّلاً في قلبكَ تأصُّل جذوع الأشجار في الأرض أو الطود الأشم لما شككتُ بحبك وإخلاصك .

لقد عصفتْ بحقلي ريحُ هواكَ فأحالته يَباباً ، وهبَّتْ على غيره فكانتْ له رياحَ رحمةٍ وحبٍّ وعطفٍ ، لا ريحَ تحطيمٍ ودمار .

رد عليها قائلاً : على رسلكِ لقد أغربتِ في حديثكِ فعن أي شيء تتحدثين ؟

صمتتْ نيرمال وأطالت الصمت فأعاد حديثه قائلاً : على رسلكِ لقد أغربتِ في حديثكِ فعن أي شيء تتحدثين ؟

أجابته قائلة : أخشى أن تكون قد تأخرتَ على مارينا فاذهب كي لا تنزعج من تأخرك .

ثم نظرتْ إلى عينيه وقالتْ : أو ربما صبا قلبها إلى دريال بدلاً منك ، فهذه القلوب تتقلب كتقلب الليل والنهار .

ثم أشاحتْ بوجهها عنه ونظرتْ إلى أعلى الشجرة ثم نهضتْ وذهبتْ إلى الحقل وبدأتْ تساعد أمها وظل هاردل في مكانه لم يبرحه وهو يفكر بهذا الحديث الذي لم يَفْقَه منه حرفاً ، ولما رآها منهمكة بالعمل مع أمها أيقن أنها لن تعود فذهب إلى الحقل فوجد مارينا جالسة القرفصاء ، فلما رأته نهضتْ مسرعة إليه وبادرته قائلة : لماذا تأخرت ؟ لقد خشيتُ ألا تأتي إلا في العتمة أو أن تبيتَ عندهم ؟

طمأنها إلى أنه لا يستطيع المبيت إلا في كوخهم ، فأخذتْ بيده واتجها إلى الجدول الذي يرتادانه كثيراً وجلسا على ضفته وقالتْ : سنرحلُ في الغد فليتَ الغد لا يأتي إلا بعد عامٍ كامل !

إن الحبَّ كهذا الجدول ...

ثم صمتتْ قليلاً ثم قالتْ : لا ، لا ، إن الجدولَ هادئٌ وجميلٌ ، فهو يسقي الأزهار على ضفتيه ، والطيور تشرب منه ، فلذلك لا يمكن أن يشبَّه به الحب لوداعته .

إن الحبَّ كالبحر يأْسِرُك منظره فتركب فلكه وفيه الموت الزؤام ، والهلاك المحتَّم ، وما أمواجه الهائجة إلا الفراق الذي لا يرحم ولا يعطف .

في غدٍ سنرحل فواويلاه من غدٍ ، ويا سوء طالعه ، إذْ به فراقُ الأحبابِ ، وحرقُ القلوبِ ، وسفحُ الدموعِ .

ألا يوجد مُضادٌ يمنعُ وقوعه ، أو ترياقٌ يُخفِّفُ ألمه بعد حدوثه ، أو ضِمادٌ يُعجِّلُ بشفائه ، والتئام جرحه الغائر ؟

كانتْ كلمات مارينا كحمم البركان تُحرقُ قلب هاردل ولما رأته صامتاً قالتْ له : ألا يُشجيكَ الفراق ويُؤثِّرُ بك ؟

أجابها قائلاً : بلى إنه ليَعْصرُ قلبي عصراً ولم أشعرْ قبل اليوم بمثل ما أشعرُ به الساعة .

قالتْ له : فمالي لا أرى الدُّموعَ تنسابُ على وجنتيك ؟

رد عليها قائلاً : إنه لمن المعيب على الرجل أن يَذْرفَ الدموع حتى وإن فقد أعزَّ عزيزٍ عليه .

ردتْ عليه قائلة : إنكم أيها الرجالُ أجلافُ الطباعِ صلادُ القلوب .

أجابها قائلاً : إن قلبي هو الذي يبكي لا عيني ، وإنه ليصطلي بنارٍ لا قبل له بمثلها من قبل ، ولكني أُظهر الجَلَدَ وأُخفي الجَزَع .

نزعتْ من بنصر يمينها خاتمها ومدته قائلة : احتفظ بهذا الخاتم ذكرى ولا تُفرِّطْ به مهما حدث .

لم يملكْ نفسه وانهار جدار الحصن الذي يلوذ خلفه ، وسال طوفان الشجن ، فانهمرتْ دموعه تتراً ، وعلا نحيبه ونشيجه وقال : إني أمقتُ الفراق والوداع فلم ترميني بهما الأقدار .

ويحكَ أيها القلب أما كان الصبرُ بكَ أولى وأحرى ألا احتملتَ قليلاً ولم تظهرْ ما تشعر به من سعير الفراق .

ثم التفتَ إلى مارينا وقال لها : ما أظهر مكنون القلب ، وفضح المحبين مثل الوداع .

ردتْ عليه وهي تكفكف دموعها : لا قدرة لنا على مجابهة الفراق ورد سهامه .

صمتا للحظات ثم سألته قائلة : ما الحب ؟

أجابها قائلاً : الحبُّ سلسبيلٌ عذبٌ ، ينبعُ من القلبِ ، ويسيلُ في العروقِ فيبعثُ فيها الحياة ، وينشرُ الأملَ ، ويجلو الشجنَ ، وقمرٌ ينيرُ ظلمةَ دربك تؤمه مدى العمر ، غير آبهٍ بما يعترض سبيلك من مصاعبَ ، وما يكتنفه من مشاق ، إلى أن تُطوى صفحة حياتك ، وتخبو شمعة عمرك ، ولم يخبُ الهوى في قلبك .

ثم نظر إلى الجدول ثم قال : الحبُّ هو سهرُ الليلِ ، ومكابدةُ الحُرَقِ ، والرنو إلى غدٍ مشرقٍ ، وأملٍ باسمٍ تبتسم فيه الدنيا ، ويولّي جحفلُ النأي الأدبار ، ويتبدل سعيره إلى نعيم الوصل ، وهجير الفراق إلى فَيْءِ اللقاء ، وشظف الحنين إلى دَعَةِ الحب وخَفْضِه ، فيقف زحفُ الوشاة ، وتُهزمُ جموعُ النوى ، وتُبدَّدُ جيوشُ الجوى ، وتُرفعُ راياتُ النصرِ ، فيُروى ظمأُ الفراقِ ، ويُتخمُ سَغَبُ النأي الذي أرمض القلب ، فننعم بظلِّ الحبِّ الوارف ، ونتفيأ ببستانه عن صَخَدِ السنين العجاف المرمضة .

ثم نهضا وعادا إلى الكوخ وقد تلفعا بجلباب الشجن ، ولم يمدا للطعام يداً ، ثم أخلدا للمبيت طاويين وفي الهزيع الأخير من الليل والبدر يتلألأ في السماء ، والريح اشتد عصفها ، انسلَّ هاردل من فراشه وفتح الباب بهدوء وخرج وأوصده خلفه واتجه إلى الكهف وصعد إليه ثم حفر في أحد زواياه وأخرج صندوقاً خشبيًّاً صغيراً ففتحه وأخرج منه قرطين من صنع يده ، نظر إليهما مليًّاً ثم وضعهما معه في كيسٍ صغيرٍ من الجلد وربطه وهو يقول : اعذريني يا نيرمال ، اعذريني يا نيرمال ، اعذريني يا نيرمال .

رجع أدراجه إلى الكوخ ثم ولج بهدوءٍ حتى لا يستيقظ أحدٌ ثم استلقى على سريره ونام وفي الصباح نهض الجميع لتوديع أهل السفينة باستثناء نيرمال التي كانتْ تَرقبُ مراسم الوداع عن كثبٍ فتقدم هاردل ومد كيس الجلد قائلاً : هذا تذكاري وهديتي لكِ .

أخذته وشكرته ثم صعدت السفينة مع الجميع ولوَّحتْ بيدها مودِّعةً هاردل وكذلك فعل هاردل حتى غابت السفينة عن ناظره فعاد كاسف البال حزيناً ، واتجه إلى الكوخ فولجه وألقى بنفسه على سريره ، ولم يبرحه طيلة ذلك اليوم والذي يليه ، فأتى إليه دريال وجلس على حافة السرير وقال له : ما الذي دهاك وألم بك ؟ إلى متى ستظل حبيس أحزانك

وأشجانك ؟ إني لم أعهدكَ ضعيفاً ولا خوَّاراً فانهضْ فما زالت الحياة بهيجة ، وما زالتْ نيرمال في هذه الجزيرة ، فهيا بنا إليها فاخلعْ عنكَ لباس الوهن وهيَّا .

نهض هاردل وذهب مع دريال ولكن ليس إلى نيرمال بل إلى الجدول وتبسَّم عندما تذكَّر عندما كان يتحدثان على ضفته فظهر لهما أرنبٌ فعدتْ خلفه لتقبض عليه ، فظهر لها أرنبٌ آخر فتبعته ، ولاح لها ثالثٌ فلحقته ، حتى كلَّتْ وملَّتْ ، فلاحتْ لها حجلةٌ فطاردتها فطارتْ فقفزتْ خلفها ثم سقطتْ وهي تضحك ، ثم عادتْ لتغسل وجهها فصرخ بجانبها فذعرتْ وسقطتْ في الماء .

تذكر هذه الأحداث فثارتْ بقلبه أمواج الحنين إلى مارينا فنهض وقال لدريال: هيا بنا إلى الشاطئ فهناك أَجِدُ أُنسي وانشراحي .

انصاع دريال لرغبة هاردل ونهض معه فعرَّجا على حقل نيرمال وعندما رأتهما حيَّتْ دريال وأشاحتْ عن هاردل الذي استاء وامتَعَضَ من هذا التصرُّف فأكمل سيره وتخلف دريال ليسألها عن سبب تصرفها هذا فأخبرته أنها لم تعُدْ تحفل بهاردل ، ولا تأبه له ، ولم يعُدْ له بقلبها مكان .

تعجب دريال من هذا التغيُّر المفاجئ وسأل عن سبب بغضها له وفركها إياه فاستعادتْ تلك الذكرى المؤلمة عندما أتتْ إلى الحقل فلم تر هاردل فذهبتْ تبحث عنه فرأته عند الجدول مع مارينا وهي متكئة على جذع الشجرة وهاردل يسقيها الماء بيده .

تجهَّم وجهها عندما تذكرت الموقف وقالتْ : لم أَعُدْ أعبأ به ولا حاجة لذكر السبب .

لم يشأْ دريال أن يُكدِّرَ خاطرها لأنه علم أن السبب مارينا فاتجه إلى الشاطئ حيث هاردل فوجده جالساً القرفصاء فدنا منه وجلس وقال له:

لم أكنْ أعلم أنها غاضبةٌ إلى هذا الحد إلا بعدما رأيتُ ما حصل قبل قليل .

قال هاردل : لا عليك يا صديقي العزيز فما زالتْ أثيرة لدي حتى وإن بدر منها ما بدر ، فأنا لا أرى الحسن إلا في قسمات وجهها ، ولا الرقة إلا في تبخترها ، ولا العطف إلا في قلبها ، ولا العذوبة إلا في حديثها .

قال دريال : إن الحُبَّ سريعُ التمكن من القلب ، بطيءُ الانحسار والزوال .

تبسم هاردل : وقال : لم يَصْدُرْ هذا الكلام من سليمٍ فأفْصِحْ لي عما يعتلج بقلبك .

ابتسم دريال ونظر إلى البحر الذي تصطخب أمواجه ثم نهض متذرعاً بأنه تأخر ويجب عليه الإسراع كي لا يوبخ .

أتبعه بصره حتى غاب عنه ثم قال : لا أعلم لم ينتابني هذا الشعور المؤسف ؟ أتراني على حقٍّ فيما ظننت ؟ أم هو مجردُ وسواسٍ يزولُ مع الأيام ؟

ثم مر بخاطره إشاحة نيرمال عنه فقال : نعم ، إن هذا يُؤَكِّدُ ما ذهبتُ إليه ولكن لماذا ؟

ثم نظر إلى الأمواج المصطخبة ولم يُشِحْ ببصره عنها ثم قال : ما أعجب هذا القلب ! إنه يَتقلَّبُ ولا يَسْتقرُّ على حال ، فالبشر يُسعده ويُرضيه ، والعبوس يُشجيه ، والبشاشة تُزيلُ ضِغْنَهُ ، والفظاظة تُغيظه ، ودمعة الضعيف تُرْمِضُهُ ، وأنينه يقتله .

وا أسفاه على ما مضى ! تبذل الإحسان فتجني الإساءة ! تزرع المعروف فتحصد الجحود ! تُعطي الصدق فتُؤْتَى الكذب ! تَمُدُّ الإيثار فتأخذ المنع ! ولا عجب في هذا فالقلوب لم تعد كما عهدتها والناس كما خلتها .

سأتحدث إلى دريال بهذا الأمر ليوضِّح لي ما استبهم لأني في مدلهمةٍ لا أرى لي منها مخرجاً إلا بالحديث إليه .

ثم صمتَ قليلاً وقطَّب جبينه وقال : لا ، لا يجب علي فعل هذا بل سألتزم الصمتَ والأيام كفيلة بإظهار ما خفي .

ثم نهض متثاقل الخطى واتجه إلى الكوخ وهو يرى في الأفق عاصفةً هوجاءَ تُنْذرُ بالخطر .

❖❖❖❖❖❖

الحلـم

في أحد الأيام أتى هاردل إلى دريال وطرق عليه الباب وعندما خرج إليه أخذ بيده وذهب معه إلى الجدول والعجب قد أخذ من دريال مأخذه ولكنه لاذ بالصمت ، وعندما وصلا إليه وجلسا بدأ هاردل حديثه قائلاً : لقد رأيتُ الليلةَ البارحةَ عجباً .

سأله دريال قائلاً : وما الذي رأيته ؟

فابتدأ هاردل حديثه قائلاً : بعدما هجعتُ الليلةَ البارحةَ رأيتُ أني أسير في صحراءَ قاحلةٍ موحشةٍ بين عواءِ الذئابِ ، وفحيحِ الأفاعي ، وعزيفِ الجان ، والبرد يشتد بين لحظة وأخرى ، وبينما أنا في ذلك المكان المخوف إذْ رأيتُ على البعد نوراً يلوح فأممته ، وفي أثناء الطريق هبتْ نفحةُ مسكٍ ذكيَّةٍ تزيد كلما اقتربتُ من النور ، وعندما وصلتُ إذا بي أمام بستانٍ له بابٌ من العقيان واللجين وعنده شابٌّ جميلُ المحيَّا عاطرُ الرَّيَّا فحييته فرد التحية بأحسن منها فسألته عن البستان والنور المنبعث منه فخيرني بين الدخول لمعرفة ما فيه ، أو العودة من حيث أتيتُ فاخترتُ الدخول ، ففتح الباب فدلفتُ إلى الداخل فرأيتُ روضةً فيحاءَ مليئةً بأنواعِ الورودِ والزهورِ المتفتحةِ التي فاح في الأرجاء شذاها ، والجداولِ الرقراقةِ ، والطيورِ الشاديةِ ، وفيما أنا مستمتعٌ بهذه المناظر الخلابة إذْ سمعتُ صوتَ همسٍ فاقتربتُ فإذا رجالٌ ونساءٌ قد علا وجوههم البشر والسعادة ، فأصختُ سمعي فإذا أحدهم يقول : أنتِ شذى الزهر ، ورقة نسمة المساء العليلة ، وعذوبة قطر الندى ، وضوء القمر المنير ، وأزهار الربيع المزدان ، والبستان الوارف ، والواحة الغناء ، والبلبل الشادي ، والشهد المصفَّى ، والجدول النمير الرقراق .

وآخر يقول : ما أنفاس الصَّبا إذا داعبتْ رياض الرُّبا إلا عبير رياكِ ، وما الشهد إلا رضابكِ ، وما الأمل إلا بسمة شفتيكِ ، وما السعادة

إلا عذب حديثكِ .

وثالث يقول : أنتِ قلبي النابض ، وأيامي المقبلة ، وأعوامي المنصرمة ، وسعادتي المنتظرة ، وأمام ملكوت حسنكِ يتهاوى عرش جبروتي ، وينحني كبريائي .

ثم سرتُ بضعةَ أمتارٍ وأنا متعجبٌ مما رأيتُ وإذا بي أمام روضةٍ أكبر من الأولى وأبهى وبها مجموعة رجالٍ ونساءٍ قد علتهم الكآبة ، يتحدثون بحديثٍ يُشجي القلب فأحدهم يقول : كم وددتُ ياحبيبة القلب قبل أن أفارق الدنيا وأظعن ظعوناً لا أوبة منه أن أراكِ ، وتضعي يدكِ على قلبي ، وتغمضي عينيكِ وأعزف لكِ لحن الهوى الخالد ، وأحدثكِ عن أحاديث الهوى ، الجوى ، النوى ، فتبتسمين ابتسامةً تُنسيني ألم النوى ، وليالي السهاد .

وآخر يقول : ماذا أفعل بقلبٍ تأوَّده هواكِ ؟ فهو لا يسعى خلف ما أصبح ملك يديكِ ، بل يسعى خلف هوى لا يُوأد ، ونأيٍ تمادى ، وحنينٍ يضطرم ، ووعدٍ لا يُنجز ، وهجرٍ طال ، ووصلٍ مُحال .

وثالثٌ يقول : حتى وإن نعب غرابُ البين الذي سماه العربُ حاتماً فسأعلِّلُ قلبي بأمل اللقاء فأنا لا آبه للسانح والبارح ، ولا أحفل للجابه والناطح والقعيد .

ورابعٌ ينشج ويقول : إن كُتبَ لنا لقاءٌ بعد هذا النأي الطويل سأضع رأسي على عاتقكِ وأُفيض مدامعي ، وأُفيض معها عبرات الوجد ، وهوى السنين ، وحنين الليالي ، وسأضمكِ إلى صدري لتشعري بحنين القلب ، وإدناف الجسد ، وإنهاك الهوى ، وإرماض النأي .

فليتكِ تريني وعيناي لا تريمان عن الرنو إلى السماء ! لعلكِ تأتين كالملاكِ على فرس أبيضَ ! لتحمليني معكِ إلى عالم الطهر والنقاء ، بلا

نأيٍ ، ولا هجرٍ ، ولا وشاةٍ ، حيث لا شيء إلا الصدق ، والوفاء ، والنقاء .

لم أملك نفسي فذهبتُ والكآبة تعلوني وكأني المصاب بما أصيبوا به وإذا بي أمام روضةٍ ثالثةٍ بها رجالٌ ونساءٌ مذهولون لا يعون ما حولهم ، وجثثٌ متناثرةٌ هنا وهناك ، فراعني ما رأيتُ وبدأتُ أجول هنا وهناك لعلي أجد من يخبرني بما يحدث ، وفيما أنا في حيرتي إذْ لاح لي نورٌ عظيمٌ فأممته وعندما وصلته إذا بي أمام قصرٍ عظيمٍ فدلفتُ إليه وإذا بي داخل إيوانٍ في وسطه بركةُ ماءٍ فيها تمثالٌ بعدة رؤوسٍ منها الأسد ، والذئب ، والتنين ، يخرج الماء من أفواهها فخطوتُ بضعَ خطواتٍ فإذا بي أمام شابٍّ لم أر أجملَ وأبهى منه فحييته ، فرد التحية بأحسن منها ، ثم سألته عن الروضات الثلاث فقال لي : قبل أن أخبرك عليك أن تفتح الأبواب الثلاثة التي عن يمينك وبعدها هلم لأخبرك .

امتثلتُ ما أمرتُ به وفتحتُ الأبواب الثلاثة فوجدتُ رجالاً ونساء لا أعرفهم فأتيتُ إليه وأخبرته بما رأيت فقال لي : أنا ملك الحب الآمر الناهي ، والرياض الثلاث فالعشاق في أول أمرهم وأوسطه ونهايته ، والأبواب الثلاثة العشاق على مر العصور .

تعجب دريال وقال لهاردل : إنكَ بحديثك هذا تذكرني بذلك المأفون الحالم .

لم يملك هاردل نفسه فقهقه عالياً وقال : أتبغضُ الحالمَ إلى هذا الحد ؟

أجابه دريال قائلاً : حديثه لا يروقني ، وقصصه التي يلقيها على مسامعنا تصيبني بالسأم .

قهقه هاردل وقال : أذكر أنك تتحاشى مجالسته ، وإذا أتى نهضتَ وذهبت .

قال دريال : إن حديثه وَخِمٌ ، وحكاياته سمجةٌ ، لذلك أبغض مجالسه .
صمتَ هاردل قليلاً ثم قال : سأروي لك حكايةً عجيبةً فأعرني سمعك .
تبسم دريال وقال : تفضل فكلي آذانٌ صاغيةٌ لك .
بدأ هاردل حكايته قائلاً : في إحدى ضواحي المدن البعيدة كان رجلٌ موسرٌ له مجلسٌ يرتاده أصحابه فيتحدثون ، ويتداولون الحكايات ، ويتناقشون فيما يستجد في أمور حياتهم اليومية ، وفي إحدى ليالي سمرهم بعد انفضاض الجمع وذهاب كلٍّ إلى منزله مشى سامر الهويني -ولم يكن على ما يرام-فكان يسير في الظلمة ويسترجع بعض أحداث اليوم ليستخلص منها العظة والعبرة حتى وصل إلى منزله فولجه ثم اتجه إلى البئر ونزع منه دلواً غسل منه وجهه ، ثم اتجه بعدها إلى الممر أمام الغرفة وبدأ يذرعه ذهاباً وإياباً والقلق بادٍ على محياه ، فأقبلتْ إليه ابنته فقبلتْ رأسه وقالتْ : لا تَشْجَ يا أبتي فإن أم سمر عند أمي وقد طمأنتني إلى أنه لا خوف عليها .
لم تنتهِ الابنةُ من الحديث إلا وبكاء طفلٍ عَقِبَهُ صوت أم سمر وهي تقول : بشراكم يا أهل الدار بشراكم فقد وضعتْ أمكم صبيًّاً .
ملأت السعادة قلب سامر وأهدى لأم سمر بعض الدقيق واللحم والسمن تقديراً لمكوثها عند زوجته وقت الوضع .
قرر الأب تسمية طفله زهيراً ، وتم الأمر ، وترعرع زهيرُ في كنف والديه سعيداً ، وكان الأب يُحِبُّ مداعبته ويضحك على بعض ما يفعله فمنها عندما كان يحبو كان يضع أمامه أريكة متوسطة الحجم فتعترض طريقه فيحاول الحبو عليها فيتدحرج ، وأحياناً يُبلِّلُ يده بالماء ثم يُلوِّحُ بها أمام وجهه فيتطاير منها بعض القطرات على وجهه ، فيغمض عينيه ، ويقطِّب جبينه ، فيظهر سناه الصغيران ، ويهز رأسه يمنة ويسرة ،

وأحياناً يمسك بيده فإذا بدأ المشي جذب إصبعه فيترنح قليلاً فإذا أوشك على السقوط أمسك به ، ثم يستلقي على قفاه ضاحكاً منه ، وأحياناً يستلقي على ظهره أمامه فيضع يديه الصغيرتين على بطنه وينظر إليه ويقول له منتهراً بلغته التي لا يفهمها سواه : دِه ، دِه ، دِه ، وهكذا دواليك .

مضى عامٌ ، وانصرم آخر ، وتلاهما ثلاثة أعوامٍ أخرى ، وأصبح عمرُ زهيرٍ خمسةَ أعوامٍ وبدأ يلعب في باحة المنزل ، وفي أحايين قليلة يخرج ويلعب مع بعض الأطفال الذين يصادفهم قريباً من المنزل ، فيعدون عند الساقية ، أو يدخلون إلى المنزل ويلعبون بباحته ما يخطر على بالهم من ألعاب ، وأحياناً يذهب مع أبيه إلى الحقل فإذا سئم رجع إلى المنزل وحده ، وأحياناً يذهب مع أمه إلى زريبة الحيوانات ويبدأ بملاحقة الدجاج ورميها بالأعواد الصغيرة الملقاة على الأرض ، أو يقف أمام الماعز ويخرج لسانه أمامها ويهز رأسه يمنة ويسرة وكأنها تفهم ما يرمي إليه .

وأحياناً يقذف بعض الدجاج فوق الزريبة ثم يصعد لإحضارها فتفر وتقفز من الأعلى عندما يقترب منها ، وأحياناً يأخذ بعض الأفراخ فيقذفها في الجو ثم يتلقفها غير آبهٍ بتحذير أمه أو تأنيبها .

بلغ زهيرُ السابعةَ وهو على هذه الحال لا هم عنده غير اللهو والعبث ، وكان مولعاً بالطبيعة ومرابع لعبه التي يلتقي فيها بأترابه ، فعندما تتدثرُ السماء بجلبابها الداكن وتزفر يذهب إلى النبع ليستمتع بأنينها ، وعبراتها ، ولا يبرح مكانه في بعض الأحيان إلا بعد أن تُرخي لثامها وتبتسم .

عندما توطدت العلاقة بينه وبين أبناء الجيران بدأ يذهب معهم إلى المزارع المحيطة بهم فيجنون من ثمارها ، أو يتراشقون بماء الساقية ، أو

يكورون بعض كرات الطين ثم يترامون بها ، وفي إحدى المرات وبينما هم في لعبهم منهمكون رأى زهيرُ أخاه الأكبر فانضم إليه مع أترابه وهو يصطاد الطيور وأعطى كلَّ واحدٍ طيراً وأخذ زهيرُ ثلاثةً ثم قفل عائداً لأمه والطيور بيده وقال لها : سأغفو قليلاً فأيقظيني بعد آذان العصر فإني على موعدٍ مع أترابي لتناول الشاي وشوي الطيور عند النبع .

طمأنتْه إلى أنها ستوقظه في الموعد المحدد ثم اتجهتْ إلى عملها ، وبعد آذان العصر أيقظتْه فذهب يُسابق الريح إلى النبع حيث موعده مع أترابه ، وهناك كان الأطفال يأتون واحداً تلو الآخر فتساءلوا بينهم أين سمير ؟ ولماذا تأخر ؟ ولم ينتهوا من تساؤلاتهم حتى لاح لهم طيفٌ ، وعندما اقترب إذا به سميرُ يحملُ معه إبريق الشاي ، وبعض السفافيد للشواء ، وعندما وصل وضع ما معه ثم جمعوا بعض الحشائش والأغصان اليابسة ، وأشعلوا النار ، ونتفوا الطيور التي معهم ، وغسلوها بالماء ، ثم بدأ سميرُ الشوي أما باقي الأطفال فقد تحلقوا حول بعضهم وبدؤوا تناول الشاي ، وعندما انتهى الشواء تناولوه بلذةٍ عارمةٍ ثم نهضوا للعب وكان زهيرُ خلال هذا يكثر من النظر إلى صبيَّةٍ تلعب بجانب الأيكة وعندما انتهوا من اللعب مضوا إلى منازلهم .

مُذْ ذلك اليوم بدأ زهيرُ يحضر كل يوم إلى النبع ، وفي اليوم الثالث رأى الصبية تبكي فهرع إليها وعندما رأته كفكفتْ دموعها فسألها عن سبب بكائها فأخبرته أنها كانتْ تقذف خشبةً صغيرةً مستديرةً وقد علقتْ بأحد أغصان الأيكة فطمأنها إلى أنه سيصعد ويحضرها لها ، ثم صعد وأحضرها لها فابتسمتْ ، وابتهجتْ وقالتْ له : لقد رأيتكَ قبل عدة أيام مع بعض لداتك تلعبون بجانب النبع ، والآن أراك لوحدك فما السبب ؟

قال لها : إني ألعب معهم في الصباح والظهيرة وبعد العصر آتي إلى هنا لأشاهد هؤلاء الناس .

ثم بدأ يلعب معها بالخشبة المستديرة فيقذفانها وأيهما يقذفها لمسافة أبعد يفوز ، وتارةً يقذفانها للأعلى ليريا أيهما أقوى وكان زهيرُ يجعل قذفه للخشبة أقصر من قذف الصبية لها كي لا يُشجيها وكانتْ تبتسم وتقول : إن أمي تقول إن الصبيان أقوى من الصبايا فليتها ترانا الآن لترى خلاف ما تعتقد .

ولما انتهيا من اللعب رافق الصبية إلى منزلها ثم عاد إلى منزله والسعادة تغمر قلبه الغض ويُحدِّث نفسه بما يجول بخاطره ، وينسج خيوط الأماني ، وبدأ منذ ذلك اليوم ينهض مع طلة النور وشقشقة الطيور ، ويخرج مسرعاً وقد تعجبت الأم من هذا ولكنها اعتادتْ عليه فهو يأتي عندما يتعالى الضحى ليتناول الفطور ، ثم يذهب مرة أخرى ويأتي عند الظهيرة ، ثم يذهب بعد العصر ويعود عند الأصيل ، وإذا لم يجد أحداً من أترابه يلعب معه يذهب مع أمه إلى الزريبة فيفعل ما يحلو له غير عابئٍ بتأنيبها ولا آبهٍ لنهرها ، وفي إحدى المرات بينما كان يلاحق الدجاج كعادته داس على أحد الأفراخ فاستشاطتْ غضباً وقالتْ له : ألم أنهك عن هذا الأمر ، وأطلب منك الأدب وعدم المشاكسة ؟

قال لها وهو يقهقه : هكذا في بعض الأحيان ألعب مع سارة في منزلها ونلاحق الدجاج سوية في الزريبة ولا تنهرنا أمها ، ولا تغضب .

أكملت الأم عملها ولم تُعِرْ حديثه أي اهتمامٍ فكلُّ اهتمامها منصبٌّ على ما بين يديها ، وبعدما انتهتْ أعطتْ زهيراً سلة البيض وحملت الحليب واتجها إلى المنزل وعندما دخلا بدأت الأم تصنع الجبن ، أما زهيرُ فقد خرج ولم يعبأ بنهي أمه ، ولم يحفل بوعدها ووعيدها.

على هذا المنوال سارتْ حياة زهير وفي أحد الأيام وعلى منضدة الطعام قال الأب وهو يرفع اللقمة لفيه : لقد بلغ زهيرُ السابعةَ من العمر وأود أن يتعلم عند معلم القرية .

أيدت الأم قرار الأب وشجعته عليه فسألها قائلاً : مالي لا أرى زهيراً ؟ أين يكون في هذه الساعة ؟ أترينه في الزريبة ؟ وعلى ذكر الزريبة أيؤذي الطيور والماعز أم لا ؟

ردت الأم قائلة : إنه يذهبُ معك ولم يَعُدْ يذهب معي .

دهش الأب وقال : كيف يحدث هذا وأنا عندما أخرج لا يخرج معي .

قالت الأم : ربما أنه يتبعك بعدما ينتهي من الفطور .

رد الأب قائلاً : لا ، لم يحدث هذا معي فلي ما يزيد على الشهرين لم أره ومن قبل لا يذهب معي إلا قليلاً .

صمتت الأم قليلاً ثم قالتْ : نعم ، ربما أنه عزف عن الذهاب معي بسبب نهري إياه في ذلك الصباح عندما دهس أحد أفراخ الدجاج .

ثم صمتتْ وكأنها تستعيد ذلك الموقف ثم أفاقتْ من شرودها وقالتْ : ولكنه خرج معي بعد تلك الحادثة ثلاث مراتٍ على ما أعتقد .

ثم تذكرتْ قوله إنه وسارة يلاحقان الدجاج في منزلها ولا تنهرها أمها ولا تغضب .

فقالتْ : نعم ، تذكرت ، لقد ذكر أنه يلعب مع صبية تدعى سارة ، فهل تعرف أباها وأين تسكن ؟

رد الأب قائلاً : لا ، لا أعرفها ، ولا أعرف أباها ، ولا أعرف رجلاً يكنى بهذه الكنية .

قالتْ الأم : هذا ما حدثني به ولكني لم أعره أي اهتمام ، ولم يَدُرْ بخلدي أن لذلك الحديث صلة بتأخر ابننا .

تعجب الأب من هذا الأمر وقرر مراقبة ابنه ومعرفة المكان الذي يذهب إليه .

في صباح اليوم التالي تأخر بالذهاب إلى الحقل وانتظر حتى خرج ابنه من المنزل فخرج خلفه وتابعه عن كثبٍ فإذا به يذهب إلى حائطٍ في الجهةِ الشرقيةِ لمنزلهم ويقف قليلاً ثم يُتابعُ سيره إلى نبعِ ماءٍ لا يبعد عنهم كثيراً فتنفَّسَ الصعداء ورجع إلى حقله بعدما اطمأن إلى سلامته وبدأ العمل ثم مر بخاطره وقوف ابنه أمام المنزل فتساءل عن سبب وقوفه ، ولماذا وقف أمام هذا المنزل بالذات ؟ أهناك أترابٌ له يلعب معهم ؟ ولكن ذلك المنزل كما يعرفه الأب لرجلٍ حديث عهد بالزواج ولم ينجبا بعد . طال به التفكير ولم يصل لتخمين مرضٍ فأكمل عمله وقبيل الظهيرة بقليل قفل إلى منزله فلم ير ابنه فسأل زوجته عنه فأخبرته أنه لم يعد إلى الآن مذْ خرج أول الصباح ، فعجب من الأمر وخرج متجهاً إلى النبع ليستجلي الأمر وكان في الطريق يتساءل عن سبب تأخره فيتسرب إلى نفسه شيءٌ من الشك أن مكروهاً حصل له فيحثُّ خطاه ، وعند وصوله رآه يرسم قصراً من الطين وحوله صبية تلعب عند الأيكة فاطمأن وعاد من حيث أتى ، وعندما رأته زوجته مقبلاً لوحده ذعرتْ وبادرته بالأسئلة عن زهير فطمأنها إلى أنه بخير وعافية ولا بأس عليه ، فهو يلعب مع صبية أصغر منه بقليل ، فاطمأنت الأم ، وأفرخ روعها ، وهجعتْ مخاوفها ، وفي منتصف الظهيرة عاد زهيرُ ليسد جوعه فطلب الأب منها ألا تحدثه بأي شيء ، ولا تسأله عن سبب تأخره ، فامتثلت الأمر وقدمتْ له بعض الخبز والجبن مع كوبٍ من الحليب فأكل ما قُدِّمَ له ثم خرج فالتفت الأب لزوجته وقال لها : يوجد في أقصى القرية حكيمٌ له مجلس بعد صلاة العصر يحضره من يريد وأريد أن أذهب بابني إليه فما رأيكِ ؟

أيدته وشجعته فذهب بابنه إليه معه ، وقد شُغِفَ زهيرُ به وبحديثه الذي لا يفقه منه إلا بعضه ، فكان يذهب إليه كثيراً مع أبيه أو لوحده وكان الحكيمُ معجباً بمداومة زهير على الحضور وحسن إنصاته ، وفي إحدى المرات أمسك بيده وذهب به إلى رابيةٍ خارج القريةِ وبدأ يرقب الشمس وهي تميل للغروب وبعد طول صمتٍ قال لزهير وهو يشير إلى الأرض : من هنا بدأنا وإلى هنا نعود فهي الأم التي ستحضننا إلى يوم البعث والنشور .

انظر إلى الشمس يا بني أتراها تبزغ من الشرق وتسير إلى الغرب حيث تغيب هناك ، هكذا يا بني حياتنا كالشمس ، بل هي كالشهاب سريع الانطفاء ، فمن المهد إلى الطفولة إلى الشباب ، ثم الكهولة ثم الشيخوخة ثم الهرم ثم الأفول والرحيل .

إنني يا بني كلما انسلخ يومٌ من عمري أدركتُ يقيناً أن هذه الحياةَ قصيرةٌ ، وأنها دارُ زوالٍ واضمحلالٍ ، والدارُ الآخرةُ هي دارُ المقرِّ والخلود .

ثم التفت إلى زهير وقال له مداعباً : ما رأيك يا بني بما سمعت ؟

أجابه زهير قائلاً : أعجبني جدًّاً أني لم أفقه منه شيئاً ، وهكذا الحديث الذي لا أفهمه يروق لي كثيراً .

تبسم الحكيم وقال : إنك فيلسوفٌ صغيرٌ يا بني .

ثم مرر يده على رأسه وقال له : يا بني إني أتوسَّمُ فيك النجابة فاحفظْ عني ما قلته وما سأقوله لك لأنه سيكون لك زاداً ومعرفةً في مقتبل عمرك وأيامك .

ثم أمسك بيده وذهب به إلى منزله فإذا بنية صغيرة له تلعب في الباحة أمام المنزل فقال الحكيم لزهير : هؤلاء فلذات أكبادنا ، نعطف عليهم ونحنو ، نمرض عندما يمرضون ، ونسقم عندما يسقمون ، ونحزن عندما

يحزنون ، فكأن أرواحنا صهرتْ في جسدٍ واحد .

كان زهيرُ يضحك في سرِّه ويقول : ما هذا ؟ التراب هو أمنا ؟ وحياتنا كالشمس تشرق وتغرب وكالشهاب ؟ وعدة أرواح في جسدٍ ما هذا ؟ إنه يهرف بما لا يعرف ؟

هكذا كان زهيرُ طفلاً صغيراً بريئاً ينظر للأمور ببساطة لا تعقيد فيها ، ولم يستوعبْ كلام الحكيم ، وظنه ضرباً من الخيال لقصور فهمه عنه .

مضتْ أيامُ زهيرٍ على هذا المنوال ففي الصباح يلعب مع أترابه ، أو يذهب إلى منزل سارة ، وبعد العصر يذهب إلى الحكيم لينهل من علمه وحكمته .

مضت الأعوامُ وأيْفعَ زهير وهو على هذه الحال ، وفي صباح أحد الأيام خرج من المنزل مسرعاً وقال قبل أن يغلق الباب : أماه سأذهب إلى النبع لعلي أرى سارة فهي الأنس والسرور ، وسأعود عند الظهيرة .

تذكرت الأم عندما كان زهير تحت إحدى النخل وبيده وردة يقطف أوراقها ورقة ورقة ويقول سأقترن بسارة عندما أكبر ، ويقول عند التي تليها لن أقترن بها ، وكانتْ آخر ورقة قطفها عند قوله : سأقترن بسارة عندما أكبر .

ثم قفز من الفرح وبدأ يدور على النخلة وهو يقول : ستكون سارة من نصيبي عندما أكبر ، وسأقترن بها ما أسعدني وأوفر حظي .

وعندما سألته عن سبب سعادته أخبرها أن لسعادته سرًّاً لا يستطيع البوح به في الوقت الراهن .

وفي المرة الأخرى عندما أتاها باكياً فذعرتْ وسألته عن السبب فأخبرها أن سارة جرحتْ قدمها ، وأنه يتألم بسبب ما حصل لها ، وتلك المرة التي سألته فيها عن سبب تأخره فأخبرها والسرورُ طافحٌ على محياه أنه

تناول الغداء مع سارة تحت إحدى النخل في حقلهم ، وفي تلك المرة عندما سألته لماذا يصعد إلى السطح فأخبرها أنه يبحث عن منزل سارة بين البيوت المتلاصقة .

وفي تلك الليلة العاصفة شديدة الصقيع عندما كان يتحدث بصوتٍ مرتفعٍ فذعرتْ وخشيتْ أن يكون حصل له مكروهٌ ، وعندما دنتْ منه دثرته بملاءته التي انزاحتْ عنه قليلاً ، وأصاختْ له السمع إذا به ينادي ويقول : سارة بربك يا سارة انتظريني ، وخذي بيدي ، ولا تتركيني وحدي أصارع الوحدة والظلمة ، لا تنصرفي وإنْ أزمعتِ على الانصراف فإن حياتي ماضية بإثركِ فارفقي بي .

هل بزغ الفجر ؟ هل طلع الصباح ؟ بربك أيها الليلُ أَطِلْ مكوثكَ ، ويا أيها الفجرُ لا تبزغْ ، فلا أهلاً ، ولا مرحباً بصباحٍ فيه فراق الأحبة .

كفكفتْ دموعها وقالتْ : وارحمتاه لك يا بني كيف سيكون وقع الخبر على قلبك ؟ بل كيف أنتَ عندما لا تجدها ما سيكون من أمركَ حينئذٍ ؟

كان زهيرُ يسابق خطواته إلى النبع والشوقُ يطوي الأرض من تحته طيَّاً ولم يعلم ما يخبئه له القدر فلما وصل لم يرها وسأل عنها فأُخْبِرَ أنها لم تأتِ منذْ ما يقارب الأسبوعين فاستغرب وعاد أدراجه إلى المنزل والحزن يعلو محياه ، وعندما عادت الأم من عملها رأته جالساً القرفصاء فسألته عن السبب فلم يُجبها فتركته وعندما حان الغداء وقدمت الطعام لم يأكلْ لقمة فسأله أبوه عن السبب فلم يجبه ، وعندما ألح عليه أخبره بما حصل فقال له الأب : لا تحفلْ بهذا يا بني ، فلا يأبه للحب إلا الموسرون والمترفون ، أما الذين يكدون ويكدحون لتأمين عيشهم فلا نصيب لهم فيه ، فدعْ عنك هذه الخزعبلات والخرافات ، وعليك بتعلم ما ينفعك ويفيدك .

لم ينبسْ ببنت شفة ولزم الصمت وعندما انتهوا من الغداء قال لأمه : أماه متى سيعودون ؟ إني هائمٌ بسارة وأرجو ألا يطيلوا لبثهم عند أقاربهم ، ثم لماذا وبخني أبي وسخر مني ؟

قالت الأم : ويحك يا بني ألا تخجل من البوح بحبك لها وحنينك إليها ؟ أما علمت يا بني أننا قومٌ نُخفي هذا الأمر ولا نظهره وإن أوردنا الهلكة .

صمتَ وخرجَ إلى الحقل وعندما حان العصر اتجه إلى الحكيم فلم يجده وطال انتظاره فلم يحضر فانصرف إلى منزله ، أما الحكيم فكان في تلك الساعة مع ابنته التي أذبلها المرض ، وأدنفها السقم ، وعلاها الاصفرار ، تُصارعُ السكرات ، ومن حولها يتجرعون الغصص والحسرات ، ثم أمسكتْ بيد أبيها الحكيم وضغطتْ عليها بقوة كأنها تَستنجدُ به ، وتستغيثُ ، وتَطلبُ منه العون ودفع ما ألم بها ، والأب لا حول له ولا قوة إلا ناراً تضطرم بين جوانحه ، وأمنيةً ترتفع إلى السماء بأن يَحْملَ عنها ما تكابده ، فأغمض عينيه وفي قلبه براكينُ تسيلُ فتحرق كل ما تمر به ، وأشجانٌ تعتور قلبه ، وقاصفُ حزنٍ يُحيلُ ما يَمُرُّ به يباباً .

تراختْ يد الصبية وشخص بصرها فقال الأب : ألقوا عليها النظرة الأخيرة ، وودِّعوها بالقُبَلِ والدعاء بأن تكون لنا شفيعة يوم القيامة ، فهي عاريةٌ اسْتُردتْ ، وأمانةٌ اسْتُرجعتْ ، ووديعةٌ أُخذتْ ، فلله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجلٍ مسمًّى ، فاصبروا واحتسبوا .

قال هذه الكلمات وبراكينُ الألم تُحرقُ جسده ، وزلازلُ الشجنِ تُزلزلُ كيانه ، وجُيوشُ الحنينِ للراحلة تَستعمرُ قلبه ، فقد كان الأبُ يَعلمُ معنى أن ترى فلذة كبدك تُصارعُ السَّقَمَ وأنت واقفٌ أمامها لا حيلة لك ولا قدرة على دفع ما ألم بها .

ثم غسَّلوها وكفَّنوها وذهبوا بها إلى مثواها الذي فيه رُقادها إلى يوم

البعثِ والنشورِ ، فحفروا القبر ، ثم سجَّوها في اللحد وحيدةً ، وأهالوا عليها التراب ، وعندما انصرف المشيعون قال الأب : أي بنيتي إنهم لم يُهيلوا الترابَ عليكِ ، بل انتزعتُ لحمَ جسدي بضعة بضعة فألقيتها عليكِ بدلاً منه ، ولم يضعوا الرِّجامَ على قبركِ ، بل شطرتُ قلبي شطرين فوضعتُ شطراً عند قدميكِ ، وشطراً عند رأسكِ ، وإني وإن حان انصرافي فإني أنصرف عظاماً بلا لحمٍ ولا قلبٍ .

مضتْ عدةُ أيامٍ لم يحضرْ فيها الحكيمُ فذهب زهيرُ إلى منزله فلم يَجِدْ عندهم عنه خبراً فبدأ يَجولُ حتى ساقته قدماه إلى مكانٍ ناءٍ وإذا به واقفٌ والحزن مرتسمٌ على محياه ، فأتى ووقف خلفه ولم ينبسْ ببنت شفة احتراماً له فسمعه يقول : إذا أشرقتِ الشمسُ أرسلتْ إلي سهام الأسى مع أشعتها لذكراكِ ، وإذا خيَّمَ الليلُ ذكَّرني ظُلْمَةَ لحدكِ ، فواويلاه من حنينٍ صهر قلبي ، وشوقٍ أذابه .

أيؤْذيكِ يا بهجةَ عمري وضياءَ دنياي الحر ؟ أم يُزعجكِ القر ؟ أم يؤْلمكِ التحافُك التُّرب ؟

لا تأسي يا فتنة القلب فقد غسلتكِ بدموع عيني ، وكفَّنتكِ بجفني ، وواريتكِ قلبي ، فأنتِ مقيمةٌ فيه لا تبرحينه ما دامتْ روحي تتردد في جسدي ، فاهجعي قريرة العين فلن يُؤْذيكِ هجيرٌ ، ولن يزْعجكِ زمهريرٌ ، ولن تُخيفكِ ظلمةٌ ، فأنتِ بقلبِ من كنتِ قلبه وروحه .

كان زهيرُ يتساءل في سره ويقول : ما أعجب هذا حكيمٌ يبكي !

أيعقل أن الحكماء الذين تَفِيْضُ عقولهم بالحكمة ، وألسنتهم بسحر القول ، يبكون وتشجى قلوبهم لفراق أحبائهم ؟ أفما بعقولهم ما يبصِّرهم بأن الفراقَ حتميٌّ ، وأن الموتَ كأسٌ وكلٌّ شاربه ، وبابٌ وكلٌّ داخله فيرضوا ويصبروا ؟

ثم تقدم إليه وقال له : أنتم أيها الحكماء أولى الناس بالصبر لما حباكم الله إياه من عقلٍ راجحٍ ورزانةٍ ، فيجدر بكم الصبر وإلا فلا لوم على عامة الناس إن بكوا وحزنوا ، وإن كان الأولى الصبر لنيل الثواب ، ولكن القلوبَ لحمٌ ودمٌ ، تَسْعَدُ وتَشجى ، تَضحكُ وتَبكي ، فيبكي الإنسان عندما يحل بساحته خطبٌ ، ويضحك ويسعد ويشكر الله إن حُبيَ نعمة من النعم .

تبسَّم الحكيم وقال : لقد سلَّيتني وعزَّيتني يا بني ، فمن أين لك مثل هذا الكلام ؟

رد عليه قائلاً : هذا بعضٌ مما تعلمته منك أيها الحكيم .

قال له الحكيم : يا بني احفظْ عني هذه الكلمات واجعلها أمام ناظريك .

أجابه زهيرُ قائلاً : هلم لي بها أيها الحكيم وسأحفظها عن ظهر قلب .

فقال الحكيم : يا بائسَ النفسِ ، منقبضَ القلبِ شجيُّه ، هوِّنْ عليك فما ابتلاك الله بهذه البليَّة في هذه الدنيا الدنيَّة إلا وقد أجزل لكَ الأجر في الآخرة ، فالدنيا إلى أجل ، وهمومها وأشجانها وأسقامها إلى أمد ، وتليد الشجى إلى اضمحلال ، وطارفه إلى زوال ، فابتهجْ ولا تَشْجَ ، فما هي إلا أيامٌ معدودةٌ ، وأنفاسٌ محسوبةٌ ، وآجالٌ مكتوبةٌ .

قد ذهب الشجيُّ وشجاه ، والمسرورُ وسروره ، والسقيمُ وسقمه ، والصحيحُ وصحته ، والقويُّ وقوته ، والضعيفُ وضعفه ، والفقيرُ وفقره ، والغنيُّ وغناه ، ولم يَبْقَ إلا الرضا لمن حمد وشكر ، والأجر لمن صبر ، والوزر لمن سخط .

ثم أطرقَ قليلاً ونظر إلى زهير الذي يتوسَّمُ فيه النَّجابة وقال له : علمتُ وأيقنْتُ أن الدنيا جُبلَتْ دنيئةً قميئةً ، تُفرِّقُ أكثر مما تَجْمعُ ، وتُقصي

أكثر مما تُدني ، وتُشجي أكثر مما تُسعد ، يخلبُكَ حسنها الممشوج بالقبح ، ويَسْبيكَ نعيمها الممزوج بالبؤس ، ويَفتنُكَ رخاؤها الملتوت بالشَّظف ، وحين تستفيق تجد أنه فات الأوان أوكاد يفوت ، فاحذر يا بني ، ثم احذر ، ثم احذر .

ابتسم زهيرُ إعجاباً بما يسمع وقال : زدني أيها الحكيم فحديثكَ البلسمُ الشافي لما يعتور قلبي من شجى .

قال الحكيم : أيها الشجيُّ سيبعثُ الله لكَ من رحم الأحزان سعادةً فاستظل بسحابة اليقين ، واتكئ على أيكة الصبر ، وانهل من معين الاتكال على الله ، وسترى مغبة ذلك أنساً وسروراً .

مضتْ برهةُ صمتٍ قطعها الحكيم بقوله وهو يشير إلى القبرين : هذان القبران اللذان تراهما قبرا شخصين عزيزين علي ، فالأيمن قبر فتاة أحلامي التي كنتُ أروم الاقتران بها ، والتي لم يمهلها القدرُ ، بل باغتها ليثُ الوغى الذي لا يُهزم فاستلَّ روحها في ريعان شبابها ، والأيسر قبر ابنتي التي كانتْ تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ الفتاة التي شغفتُ بها ، وهاهي الآن ترقد بجانبها إلى يوم البعث والنشور .

عندما رأى زهيرُ بعض الأنس على وجه الحكيم شكا له ما حصل له مع أمه وأبيه وكيف انتهراه عندما باح بحبه لسارة وقال له : أأكون أنا وسارة كالليل والنهار ، أو كالشمس والقمر ، أو كالمشرق والمغرب ، أو كالشمال والجنوب ، أو كالهجير والزمهرير ، أو كالصخد والفيء ، لا نلتقي أبداً ؟

رويدكِ ثم رويدكِ فقلبي ملكُ يديكِ ، لا يَحنُّ إلا لكِ ، ولا يهفو إلا إليكِ ، ولا يتمنَّى إلا لقاءكِ ، وما أمسكتُ بعودٍ إلا ونكتُّ اسمكِ به على الأرض ، ولا وضعتُ بين أناملي ملعقةً إلا ونقرتُ اسمكِ على الطاولة

غير آبهٍ بتوبيخ من يُوبّخ ، وتقريع من يُقرّع ، ولا نظرتُ إلى شيءٍ بين الخافقين إلا رأيتُ محياكِ الوضيء يبتسم .

ثم نظر إلى وجه الحكيم ولما رأى تعابيره جامدة قال : أأهديها وردةً وهي بستانُ وردٍ لا نظير له ؟

أم أهديها عسجداً ، ولجيناً ، وزبرجداً ، وزمرداً ، ولؤلؤاً ، وهي لا تزدانُ إلا على جيدها ومعصميها وأذنيها .

لن أهديها ذهباً ، وفضةً ، وعقداً ، ودملجاً ، وقرطاً ، بل سأهديها قلباً لن ينبضَ إلا بحبها ، ولن يهفو إلا لمرآها ،وكفين يرتفعان كل يومٍ وليلةٍ بالدعاء لها بالتوفيق والسعادة .

ابتسم الحكيم وقال له مسلّياً : يا بني إن الدنيا اجتماعٌ وافتراقٌ ، حياةٌ وموتٌ ، صحةٌ وسقمٌ ، غنى وفقرٌ ، سعادةٌ وشجنٌ ، فلا تيأسْ يا بني فالحب قد أتْهَكَ كثيراً من القلوب قبلك ، وأورد الكثير منها الهلكة ، فهو ملكٌ جبارٌ ، وسلطانٌ جائرٌ ، تحت إمرته خدمٌ يمتثلون أمره بغزو القلوب واستعمارها وحرقها ، لا يُفرّقون في هذا بين كبيرٍ وصغيرٍ ، ذكرٍ وأنثى ، ملكٍ وسوقةٍ ، قويٍّ وضعيفٍ .

ابتسم زهيرُ وظهر الأنسُ على وجهه وعندما ولى أتبعه الحكيمُ بصره حتى غاب عنه ثم قال : سلامٌ مترعٌ بالحنين لأتراب الصبا ، ولدات الفتوّة ، وإخوان الشباب الذين لم أَنْسَهُمْ إلى هذه الساعة ، فرعى الله ذلك الزمان ، وسقته الغوادي حتى تُمْرِعَ مرابعه ، وتكتسي ثوبها السندسي مهامهه الفيح ، ورحمة من الله على أحبابنا الذين ماتوا تغشاهم كل آن .

ثم رنا بطرفه إلى السماء وقال : سيأتي يومٌ يَتَّشحُ فيه بالسَّواد من يُحبُّني ، ويرنو بطرفٍ كسيرٍ إلى السماء ، ويرْفعُ كفين إلى الرحمن الرحيم يسأله لي الرحمة والمغفرة والرضا ، فارحمْ يا إلهي في تلك الساعة ضعفي وانكساري ،

والطفْ بحال من سَيُذهلهم الخطب الجسيم .

في صباح اليوم التالي ذهب زهيرُ إلى منزل سارة وكان يدور بخلده أنها ذهبتْ لزيارة بعض أقاربها فلم يجدها وداوم على هذا أسبوعاً كاملاً فذُعرَ والده وخَشيَ عليه فذهب خلفه في أحد الأيام فوجده يفتح الباب ثم يدلف إلى الداخل ويتجه إلى عمودٍ ويبدأ البكاء عنده فأتى إليه وضمه وقال له : ماذا دهاك يا بني وألمَّ بك ؟

رفع زهيرُ رأسه وقال وعيناه تفيضان بالدمع : هنا يا أبي قالتْ لي سارة : أخشى ألا يدوم أنسنا هذا ولهونا ، فوا شوقاه إليكَ وإليهما إن حدث هذا .

وهناك وأشار إلى أسفل النافذة كنا نتناول الإفطار بعض الأيام سويًّاً ونتحدث ، أو أقص عليها قصص (السباحين) ، فتمر بنا أمها وتبتسم لنا وتقول : لا فرَّق الله بينكما ، وجمع بينكما عندما تكبران .

طمأن الأب ابنه إلى أن هذه سنة الحياة ، فلا يجب عليه أن يشجى ، ثم أخذ بيده وانصرفا وفي قلب الابن بركانٌ من الشوق يُحْرقُ قلبه الغض .

لم يَسْلُ ولم يتركْ عادته في الذهاب إلى منزلها والذهاب إلى النبع ولكن سارة لم تأتِ وهذا ما أشجاه ، وفي إحدى المرات ذهب إلى النبع كعادته وفي الطريق كان يتساءلُ ويُحدِّثُ نفسه بصوتٍ مسموعٍ : عجباً لماذا لم تأتِ اليوم أيضاً ؟

هذا الشهرُ الثالثُ يكاد يَنْصرم وأنا لم أرها ؟ هل حدث لها مكروه يا ترى ؟

لقد ذهبتُ إلى منزلها كثيراً وطفتُ به فلم أر أحداً ؟

ثم صمتَ قليلاً ونظر إلى جهة الشرق وأطال النظر ثم قال : أيعقل أنهم رحلوا عن هذه القرية ؟

ثم صمتَ قليلاً وقطَّب جبينه ثم قال : ما سبب رحيلهم يا ترى ؟ وإلى أين رحلوا ؟

أكمل سيره حتى وصل النبع وجلس قريباً منه وعندما دنى الأصيل عاد إلى المنزل حزيناً كئيباً وعندما جن الليل تقلب على جنبيه في مضجعه ولكن النوم جافاه ، وفي السحر أخذته سنةٌ خفيفةٌ هبَّ بعدها مذعوراً ، فقد رأى سارة في الحلم وهي تستغيث وتقول : أدركني ، أدركني ، أدركني . أشجاه ما رأى ، وفارق النوم عينيه ، فذهب إلى النبع كما هي عادته عندما يشتد عليه الخطب ، وعندما وصل إليه دار حوله ثم قال : أين من كانتْ ضياءك وبهاءك ؟ أين من كانت البدر في ظلمائك ؟ أين من كانت الغيث أيام دهرك وجدبك ؟

ثم جلس وبدأ يرقب البدر المكتمل والنجوم اللامعة في السماء وبدأ التأمل ثم قال : ترى ما حالها الآن وأي ألمٍ يُقِضُّ مضجعها يا ترى ؟ أواه ثم أواه ليتني كنتُ السَّقيم بدلاً عنها وهي التي ترفل بثياب الصحة والعافية بين أهلها .

ثم ابتسم وقال : إنما هي أمنيةٌ وهكذا الأماني توصد دونها الأبواب ، ولا يتحقق منها إلا ما ندر لمن كُتبَ له التوفيق وإن جدَّ البعض واجتهد في سبيل تحقيقها .

ثم كرَّ راجعاً إلى منزله فأعد عدة السفر وسلم على أمه ثم أخبرها بعزمه على الذهاب للمتاجرة وأن خارج القرية قافلة تنتظره ، فودعته ، وأوصته ، ودعتْ له ، فأمَّ منزل سارة وطاف به قليلاً ثم نَحَتَ أسفل النافذة التي كانا يجلسان تحتها يتحدثان هذه الكلمات : سأرنو إلى السماء كل ساعة ضارعاً إلى الله أن يشفيكِ مما ألم بكِ ، ويُديم البسمة

على ثغركِ ، ويملأ بالسعادة قلبكِ مدى الحياة ، وسأقطع تخوم الأرض ، وأذلّل العقبات مجازفاً بحياتي إلى أن آتي بترياق سقمكِ ، يا منبع سعادتي ، وضياء حياتي ، وربيع عمري ، وسأؤوب حاملاً ترياق سقمكِ ، وسأهديكِ قلباً سيضحي مُلكاً لكِ ما حيينا ، فسعادتكِ سعادتي ، وشجنكِ شجني ، وسقمكِ سقمي ، فانتظري فلن يطول الانتظار .

ثم ركب ناقته وحثها إلى القرية المجاورة إلى الحكيم ، وعندما وصل القرية أناخ راحلته وسأل عن بيت الحكيم فَدُلَّ عليه ، فذهب إليه وأخبره بما حدث له ، فقال الحكيم : انتشر هذه الأيام مرضٌ يضعف الجسد ، ويُلزم الفراش ، ولا أعرف ترياقه ، والحكيم الذي في القرية التي خلف البحر أعلم مني ، فاذهب إليه .

سأل زهير الحكيم عن سبيل الوصول للحكيم ما دام يفصل بينهما البحر فأجابه : هناك سفينةٌ تذهب كل ثلاثة أشهرٍ مرة ، ولحسن حظك موعد انطلاقها غداً .

ابتهج زهير ، وطلب من الحكيم أن يحفظ ناقته ريثما يعود فوافق ، ثم ذهب زهير إلى الميناء وكلَّم قبطان السفينة الذي رحَّبَ به ، وفي صباح اليوم التالي أقلعت السفينة تمخر عُباب الماء إلى الجزيرة ، وبعد عدةِ أيامٍ وصلوا فسأل زهيرُ عن الحكيم فدل عليه فأخبره كما أخبر الحكيم الذي قبله بما حدث فقال الحكيم : في هذه الأيام انتشر مرضٌ يجعل المريض يعزف عن الطعام وينام كثيراً ، وربما أن مريضكَ مصابٌ به .

ثم نظر إلى زهير وقال : ما الثمن الذي ستدفعه ؟

قال زهير : إني لا أملكُ مالاً ولعلك تخبرني بمكانها لأحضرها .

رفض الحكيم رفضاً باتّاً ، ولم يُصْغِ لتوسلات زهيرٍ بل صَمَّ أذنيه وقال :

ما دُمْتَ لا تملكُ المال فعليكَ بالعمل لدي في الحقل لمدة عامٍ كاملٍ وبعدها أخبرك .

حاول زهير ولكن محاولاته كلها باءتْ بالفشل وأخيراً رضخ لأمر الحكيم وبدأ العمل ، فكان يقوم في الصباح ويتجه إلى الحقل ويبدأ العمل بالحرث ، والسقي ، وتهذيب الأشجار ، والحكيم يتناول إفطاره ، ويُراقبُ زهيراً ، ويوبخه ويعنفه إن تَراخى في العمل أو تَباطأ ، فلما مضى عليه شهرٌ استيقظ ذات صباحٍ فلم يره فجُنَّ جنونه وذهب يبحث عنه فلم يجده ، فذهب إلى الشاطئ فوجده يَرْسُمُ قصراً من الطين ويقول : عندما أُحضر العشبة وأجد سارة وأعطيها إياها وتشفى سأتزوجها وأبني لها قصراً تَنْعُمُ به بقية حياتنا .

ثم كتب اسميهما على الرمل وقال : إن الشمسَ تغربُ ، والقمرَ يأفلُ ، والنجومَ تغورُ ، والأنهارَ تنضبُ ، والقاصفَ يسكنُ ، والعاصفَ يهدأ ، والأزهارَ تذبلُ ، والشبابَ ينصرمُ ريعانه ، والحادي يكلُّ ، والأجسادَ تشيخُ ، والأعسانَ تعفوها الرياحُ ، والمشاعرَ تتبدلُ ، والذكرى يغمرها طوفان النسيان ، والنعيمَ يزولُ ، والأعمارَ تُطوى ، والدنيا تفنى ، أما حبكِ فخالدٌ بقلبي لا يفنى ، ولا يبيد ، لأني أشعرُ بلذة الحياة ، وأتنسَّمُ أنسامَ السعادة لأنكِ مقيمة بقلبي لا تبرحينه ، تجلين شجنه ، وتبعثين أنسه وسروره ، وتجددين أمله .

ثم صمتَ قليلاً وأطرق برأسه إلى الأرض ثم رفعه ودموعه تنساب على وجنتيه وقال : يَجتمعُ الناسُ للتهنئة عند ولادةِ مولودٍ أو حدثٍ سعيدٍ ، وللتعزيةِ والمواساةِ عند وفاةِ عزيزٍ أو خطبٍ جللٍ ، أما عند ما يَشْغَفُ القلبَ الحبُّ ، ويَشْعَفُه الحنينُ ، فالكل يضحك ويزدري ، ولم يعلموا أن

القلب يموت كلَّ ساعةٍ ، ويحترق مع كلِّ هبةِ حنينٍ تُذكي أواره إلى من أرمض القلب هواها ، فوارحمتاه لتلك القلوب الشجية ، والأعين الباكية ، والأجساد الناحلة .

ثم أخذ بعض الرمل ورفعه إلى قرب وجهه وقال : آهٍ لو تعلمين يا حبيبة القلب أني كثيراً ما أكتبُ اسمكِ على راحة يدي أو في الهواء ثم أقبِّله .

لم يُصدِّق الحكيم ما يراه ويسمعه فبكى إلى ما شاء الله أن يبكي ، ثم كَفْكَفَ دموعه وعاد إلى بيته ، وعندما عاد زهيرُ لم يعنفه ولم يوبخه ، بل هش له وبش وقال له : يكفي هذا الشهر الذي عملته يا بني وسأرشدك إلى مكان العشبة إنها توجد في البحر عندما تتجاوز جوز الهند وتمشي بمحاذاة الشاطئ سترى صخوراً مرجانيةً عليك أن تعد إلى الثالثة وهناك تغوص لتجدها ، ولكن إياكَ ، ثم إياكَ ، ثم إياكَ ، أن تُشرقَ الشمسُ وأنتَ لم تقطفها لأنها تفقد خواصها إن قُطفتْ بعد الشروق .

استبشر زهيرُ وفرح وقبَّلَ رأسَ الحكيمِ ثم ذهب من فوره وبدأ يُعدُّ القاربَ بِنَشْرِ الخشبِ ورصْفِ بعضه إلى بعض ، وعندما انتهى بات عند الشاطئ وقبيل الفجر بقليلٍ استيقظ وركبَ القاربَ وجدَّف إلى أن وصل إلى الصخور فعد إلى الثالثة ثم غاص عندها وبحث عن العشبة ولكنه لم يجدها فخرج ليستنشق بعض الهواء ، ثم غاص مرة أخرى ولم يحظَ بطائل ، وكرر المحاولة عدة مرات ولكن دون جدوى ، وفي نهاية الأمر عاد حزيناً كاسف البال وأخبر الحكيم بما حصل فشرد ببصره إلى جهة البحر ثم قال : وارحمتاه لك يا بني إني أعلم ما يَعْتَورُ قلبك من الشجن على ما آل إليه حال من تُحب .

ثم صمت قليلاً وقال : إن العشبة لا توجد إلا في مكانين لا ثالثَ لهما ،

وما دمتَ لم تجدها عند الصخور المرجانية فإليك المكان الآخر ، إنه رأسُ جبلٍ وعرٍ في جزيرةٍ نائيةٍ دونها أهوالٌ وشدائدٌ تَبعُدُ عنا مسافة ثمانية أيام ، فإن نجوتَ من الوحوش الكاسرة والهوام السامة ، لن تنجو من آكلي لحومِ البشر .

في هذه اللحظة تذكر سارة عندما أتته في الحلم وهي تقول أدركني ، أدركني ، أدركني ، فنظر إلى جهة البحر وقال : سأذهبُ وأحضرُ لها ترياقَ سقمها ولو كان في هذا ذهاب روحي .

لما رأى عزمه على الذهاب وصف له مكان الجزيرة فركب قاربه وأخذ معه بعض الطعام والماء ثم أبحر مصارعاً الأمواج العاتية بعريكةٍ لا تلين وقبيل وصوله إلى الجزيرة بيومين نفد زاده وشرابه فتدرَّعَ بالصبر ، وتلفَّعَ بالعزيمة ، وكلما خَبَتَ نشاطه ، ولانتْ عزيمته ، وفترتْ همته ، تذكر سارة وهي تقول أدركني ، أدركني ، أدركني ، فيزداد همةً ونشاطاً حتى وصل إلى الجزيرة فرأى دخاناً ينبعث من مكانٍ ليس ببعيدٍ عن مكان وقوفه فأدرك أن في ذلك المكان يوجد آكلو لحومِ البشر ، فدار نصف استدارة على الجزيرة ثم أرسى القارب على الشاطئ ومشى إلى أن كلتْ قدماه وإذا به أمام الجبل الذي وصفه له الحكيم .

لم ينتظرْ حتى يعودَ له نشاطه بل تسلَّقه وفي منتصفه خارتْ قواه فسقط وانكسرتْ قدمه وأغمي عليه ، وعندما أفاق من إغماءته إذا به في كوخٍ صغيرٍ وأمامه رجلٌ عجوزٌ وساقه عليها جبارة فذُعرَ وقال : من أنت ؟ لابد أنك أحد آكلي لحوم البشر ؟

قال له العجوز : اهدأْ يا بني فلو كنتُ كذلك لما جبرتُ ساقك ، ولما انتظرتك حتى تفيق من إغماءتك .

اطمأنَّ زهير وحكى للعجوز كل ما حدث له فقال له العجوز : كم أرثي لحالك يا بني تحتاج لثلاثة أشهرٍ حتى تجبر ساقك وتستطيع تسلق الجبل .

تأفَّفَ زهيرُ وقال : أأمكثُ هنا إلى أن تقْضي نحبها ؟ لا ، لا ، لا ، لن يقرَّ لي قرارٌ ، ولن يهنأَ لي بالٌ ، ولن يطيبَ لي عيشٌ ، حتى آتيها بترياق سقمها كيف لي أن أنسى صوتها الواهن عندما أتتني في الحلم وقالتْ لي : أدركني ، أدركني ، أدركني .

صمتَ قليلاً ثم التفتَ إلى العجوز وقال له : من أنت ؟ ولماذا تعيش في هذا المكان النائي المهجور ؟

نظر إلى الأفق البعيد وقال وهو يستعيدُ تلك الذكرى المؤلمة : أنا هنا يا بني مذْ ما يزيدُ على العقدين من الزمان بسببِ ما حصلَ لي وأنا في ريعانِ شبابي .

ثم أطرق برأسه وانسابتْ دمعةٌ على خده لم يستطعْ حبسها ، تلتْها دموعٌ لم يستطعْ لها دفعاً وقال : لقد تزوَّجَتِ الفتاةُ التي أُحبُّها ولم أستطع المكوث في القرية بعد هذا .

كيف لي أن أمكثَ في أرضٍ لم يُكتبْ لي فيها لقاء من أُحب ؟ بل كيف لي أن أُقيمَ في قريةٍ وأَدَتْ سعادتي ؟

ثم كَفْكَفَ دمعةً أبتْ إلا الانحدار وقال : لا يعلم أولئك اللائمون ما في القلب من ومقٍ وشغفٍ وشعفٍ ، ولا يعلمون ما يكابده من الحنين إلى من اسْتَبَدَّ بالقلب هواه ، فسلامٌ على تلك القلوبِ الصافيةِ ، والأرواحِ النقيَّة .

سلامٌ عليها ما غرَّدت الأطيارُ ، وهبتْ نفحاتُ الأسحارِ ، وتمايلتْ على نسماتِ الصباحِ الأزهارُ .

سلامٌ عليها ما تعاقبَ القمران ، وناحت الحمائمُ فوق الأغصانِ ، وبكى الشعراءُ الإخوانَ ، والخلانُ الخلانَ .

نظر إليه زهيرُ ثم قال : إنَّكَ على خلاف الحكيم في قريتنا فقد ماتتْ من أحبها فتزوَّجَ والجرح في قلبه لم يَندملْ ، ثم وُلِدَ له بنتٌ فلم يمهلها المرضُ طويلاً ، ولكنه يزورُ القبرين ويدعو لمن فيهما ، ولم يُخلفْ عادته هذه في جميع تقلبات الجو .

حاول النهوضَ ولكن الألمَ شديدٌ لا يطاق فعاد إلى فراشه ، وبدأ العجوزُ كلَّ يومٍ يصطاد بعض الطيور أو الحيوانات ويطهوها له ولزهير حتى شُفِيَ وعُوفي تماماً وأصبح قادراً على المشي ، فذهب إلى الجبل قبيل الفجر وتسلَّق الجبلَ بصعوبةٍ ، ثم قطفَ العشبة وعاد والفرح يعلو محياه ، ثم شكر العجوز على فضله وجميله ثم اتَّجَهَ إلى القارب الذي على الشاطئ فلم يجده فاضطُّر إلى صنع واحدٍ آخر ، وعندما أتمه ركبه وعاد إلى الجزيرة ووجد سفينةَ المؤَنِ قد أقلعتْ قبيل ساعاتٍ قليلةٍ فاضطُّر إلى العمل مدة ثلاثة أشهرٍ ليُؤمِّنَ لنفسه الأكل والشرب حتى إذا عادت السفينة أقلع معهم وعاد إلى الحكيم وأخذ ناقته وركبها وذهب يبحث عن سارة في القرى والبلدان .

انصرم حولٌ وتلاه حولٌ ، وانقضى شهرٌ وعقبه شهرٌ ، ومضى يومٌ تلو يومٍ ، وهو يجوبُ القفارَ ويقطعُ الديارَ بحثاً عنها فسأل كل من صادفه ولكن دون جدوى ، وطال غيابه عن أهله الذين كانوا يسألون القوافل العائدة من أرض الغربة ولكن لم يُعْطهمْ أحدٌ إجابةً شافيةً عنه حتى أيقنوا أن إحدى الحيوانات المفترسة أكلته .

أما زهير فكان يهبطُ وادياً ويظعنُ منه إلى قريةٍ ويشخصُ منها إلى مدينةٍ ويقفلُ من بلدٍ ويؤمُ بلداً ، وعندما لوَّحَ الشيبُ بعارضيه ويَئِسَ

من إيجادها عاد إلى منزله وأثناء الطريق أضناه المسيرُ ، وأنهكه السَّغَبُ ، ونال منه الظمأُ واللَّغَبُ فوجد واحةً غنَّاءَ تلُوحُ له على البعد فأمَّها وعندما وصل إليها وعبَّ منها ما أروى ظمأه اتَّكأَ على نخلةٍ وقال : ما هذا الماءُ الزلالُ العذبُ البارِدُ بألذ من رضابها الذي نهلتُ منه في الحلم في تلك الليلة ، وما تغريدُ الطيورِ الشجيِّ بعد هذه العاصفة الهوجاء بأعذبَ من صوتها الذي ناجتني به في ذلك الحلم .

ثم عاج على قريةٍ لاحتْ له ليقضي فيها ليلته ، وعندما وصلها استضافه أحدُ أهلها فاختار أن ينامَ في العريش لرغبته بالاستمتاع بليل شتاء القرية الذي طال عهده به فنزل عند رغبته وتركه ، وعندما استلقى على فراشه لم يستطع النَّومَ فقد عاد بذاكرته إلى أمه ، ومرابع صباه ، وسارة ، وأترابه ، وأثناء ذلك أرختِ السماء عزاليها فأخرج يده فإذا امتلأتْ من المطر شربه ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : يا مُطهِّرَ الجو من الأوساخ ، وغاسلَ الأرضِ من الأوضار ، والنفوس من الأدران ، والقلوب من السخائم والأضغان ، صوت الرعد وصوت وقع زخَّاتكَ على الأرض هما أعذب صوتين يطرقان سمعي ، ورؤية نور البرق لا يعدله عندي إلا مشاهدة البدر المكتمل في الليلة الدَّاجية في صحراء بعيدة مع ثلَّةٍ من أصحابي ، ورؤية تلك الفاتنة من عهد الصبا ، فاللهم لا تحرمنا هذه النعمة ، وأدمها علينا يا رحمن يا رحيم .

ثم ابتسم وهو يقول : أبدأ يومي بـ (أحبكِ) ، وأختمه بـ (أحنُّ إليكِ) ، ثم أغفو وأنا أفكر بكِ .

ثم دارتْ بينه وبين النوم معركةٌ كان الخاسر فيها ، وفي الصباح أثناء تناول الفطور كان يحدِّثُ نفسه بصوتٍ مسموعٍ : يا ترى ما شأنُ الفدِ التي أتتني الليلة البارحة في الحلم وأخذتْ بيدي وذهبتْ بي إلى نبع ماءٍ

تَحُفُّه الزهور من جميع جوانبه وبجانبه شجرة أيكٍ وارفة الظلال وقالتْ لي : هنا الملتقى ، هنا الملتقى ، هنا الملتقى .

ثم تناول لقمة وارتشف رشفة من كوب الشاي ثم رنا بطرفه إلى السقف وقال وهو يتذكر سارة : إن قلبي ليتفطر ومقاً إليكِ وحنيناً ، فأنا أسير هواكِ الذي تسربل حبكِ منذ الصِّبا ، فاعطفي على أسيركِ ، وخفِّفي ما يُثقلُ كاهله من نأي ، فأنتِ الغيمةُ الملأى بالغيثِ التي أتبعها منذ الطفولة ، فلا يُؤسُني جهامها ، وأرجّي هتانها وديمها .

ثم نقر بالملعقة على الكوب نقرتين ثم قال : أنصتي يا حبيبة الصبا لنبضات قلبي ستسمعين منها خمساً تَنبضُ بانتظامٍ مشكِّلةً اسمكِ ، وبين كلِّ نبضةٍ ونبضةٍ تجديدٌ لعهد أن تظلي سيدة القلب بلا منازع ، فلو كان قلبي كالجوِّ بين السماءِ والأرض ما ملأه سواكِ ، وما قرَّ عينه إلا أنتِ ، وما سكن جوانحه غيركِ .

ران الصمتُ بعدها عدة لحظاتٍ عاد فيها زهير إلى شروده ثم أطرق برأسه وقال : عندما صبا قلبي إليكِ دفنته في بيداء الجفاف مُؤثراً بيداء هجير نأيكِ على كل روضةٍ وبستانِ وصلٍ ، فاخترتُ الصيفَ على الربيعِ ، والهجيرَ على الفيءِ ، والمفازةَ على الواحةِ ، والجمرَ على الماءِ ، والشقاءَ على الراحةِ ، والسهرَ على النومِ ، وأوقدتُ بين ضلوعي أُتُناً لا يَخْبو لظاها مدى العمر ، وما انصرمَ يومٌ من أيامِ حياتي إلا وبه شجنٌ وحنينٌ ، فشجنه ظعنكِ ، وحنينه نأيكِ ، وما قرأتُ أبياتاً ، أو قصائدَ للوقوف على الأطلال إلا سَحَّتْ دموعي رغماً عني حنيناً إليكِ .

أفاق من شروده على قهقهة مضيّفه وهو يقول : أحاديثُ نفسٍ مشتاقةٍ ، أرهقها وعثاء السفر والبعد عن الأحبة .

خجل زهيرُ وأكمل فطوره وبعد انتهائه ودَّع مضيّفه وامتطى راحلته

يَقطعُ البيدَ ويطوي الأرضَ قاصداً قريته والشوقُ يَعصفُ بقلبه إلى قريته وملاعب طفولته وذكرياته مع سارة عند النبع حتى وصل إلى منزله وفرحتْ والدته بعودته فرحاً شديداً فاستراح عدة أيام من وعثاء السفر حتى عاد إليه بعض نشاطه وأقسمتْ عليه أمه ألا يبرحَ قريته مهما كانت الظروف فأذعن لطلبها وعاهدها على هذا .

بعد عدة أيام من عودة زهيرٍ إلى قريته ذهب في صباح أحد الأيام والشوق يحدوه إلى ملاعب الطفولة ووقف في منتصفها وأجال ناظره فيها ثم قال : ها أنذا أعود إلى مرابع الصبا لأطفئ لظى الشوق المضطرم بين جوانحي فلا أرى إلا أيكةً جفَّتْ أفانينها الريانة ، ووجاقاً دَرَسَ رسمه ، ونسماتٍ تهُبُّ مضمخةً بذكرى لدات الصبا وأتراب الطفولة .

ثم مضى إلى الأيكة ووقف أمامها وأطال الوقوف ودموعه تجري على وجنتيه ثم قال : ها أنذا أعود يا ريحانة قلبي ، وزهرة بستاني ، وأمل حياتي ، وشمس قصري ، وقمر دنياي ، وسعادة عمري ، وبسمة محياي إلى ملتقى العهد الأول وشفيعي إليكِ قلبٌ ينبضُ بهواكِ ، وضلوعٌ ترتجفُ حنيناً إليكِ ، وروحٌ أُغرمتْ بمغاني طفولةٍ كنتِ ترتادينها ، وهوى أنتِ باعثة كلفه، ومُورية صبابته، ومؤجّجَة تباريحه، ومذكية حنينه .

ثم يمَّم وجهه شطر النبع وجلس في المكان الذي كان يجلس فيه فيما مضى مع سارة ، ثم انحنى وغرف منه بيديه وشرب ، ثم قال : إذا كان مغبةُ الهوى لقياكِ ، وعاقبةُ النأي دنوُّكِ ، ومآلُ الهجر وصلكِ ، ونهايةُ الحنين ضمٌّ وارتشافٌ فستكون تباريح الهوى ، وإدناف النأي ، ولظى الهجر ، وإرماض الحنين على قلبي برداً وسلاماً ،وسألتذُّ بها مهما أنهكتْ ، وشسعتْ ، وامتدتْ ، وأحرقتْ .

ثم صمت قليلاً وبقلبه يعتلج حنينٌ يكادُ يخنقه ثم قال : لو كان الهجر ،

والنأي ، في ثغر هزبرٍ كاسرٍ لانتزعتُ لسانه من قفاه ، وأذقتُ النوى والهجر كأس الردى ، لينعم باللقاء كل من طما بقلبه طوفان الهوى ، واضطرمتْ أتن الحنين .

وعند الأصيل عاد إلى منزله ، ولم يُخلفْ عادته هذه حتى في أيام سقمه ، وفي عصر ذلك اليوم ذهب إلى النبع وبدأ يستعيد ذكرياته الجميلة مع أترابه ومع سارة ولفتَ انتباهه نَصَفٌ جالسة القرفصاء عند الأيكة وعندما دنى الأصيل وحان موعد إيابه دنا منها وقال لها : يا أمة الله إن المكان بعد هذا الوقت يكون خطراً فعليكِ بالذهاب .

رفعتْ طرفها ونظرتْ إليه فرأتْ ندبة على خده فاضطرم أوار حنينها وقالتْ : لا عليك أيها الشيخ إني أجد في هذا المكان بعض السلوى ، وقد اعتدتُ المكوث فيه إلى ما بعد العتمة بقليل .

صمتَ وذهب إلى الجهة الأخرى من الأيكة ووقف تحت الغصن وأطال الوقوف ثم بدأ يناجيه قائلاً : ها أنذا أعودُ إلى مرابع الأنس والسرور ، ومنبع الحب ، وملتقى الهوى فيما مضى وحيداً ، بعدما انحسرَ في ءُ الشبابِ ، وامتدَّ هجيرُ الشيبِ مغلقاً باب حصن قلبي عن هوى سواها متزراً بإزارٍ أسود من نأيها الذي أمضَّني وأرمضني والذي لن أتَّزر بغيره مدى العمر إلا أن ألقاها ، وأُبهج ناظري بمرآها ، فمتى تعلم بما أُضمره لها من الهوى لترأف وتعطف على من شغفه الحب ، وأدنفه الومق ، وأضناه الحنين ؟

ثم وضع يده على قلبه وقال : شيدتُ لها بقلبي قصراً ، فرشته بأرائك الديباج ، ونمارق الاستبرق ، وزاربي الحرير ، وعينتُ على أبوابه حراساً غلاظاً بأيديهم السيوف المصلتة ليمزقوا إرباً إرباً ، الشجن ، والكدر ، والوحشة ، إن ألموا أو أطافوا حول قصرها المشيد .

ثم عاد بذاكرته إلى أيام الصبا عندما كان يشتري لها في بعض الأحيان الحلوى من العجوز الجوالة وأثناء شروده سمع تغريداً شجيًّاً أخذ بمجامع قلبه فأصاخ له السمع ثم رفع رأسه فرأى طائرين يغردان ، ويتمسح أحدهما بالآخر ، فقال وعيناه لا تريمان عنهما مناجياً الغصن الأعجم وهو لا يفقه مناجاته: انظر أيها الغصن إلى ذينك الطائرين فوق الفننِ الرَّنْدِ ينوحان كأنهما يُؤَبِّنان حبي الذي وُئِدَ قبل اكتمال نصابه .

أبِّنا حبي فوالذي نفسي بيده أن هواها أطلق لساني من عقاله ، ونفثَ عليه ما لم أعهده ، فهي عيد عمري الذي لم أحظ به ، وأمنيتي التي أوصدتْ دونها الأبواب ، فأستودع الله الذي لا تضيع ودائعه قلبها الرقيق ، وروحها الشفافة الطاهرة .

ثم أصاخ سمعه من جديد لتغريد الطائرين الذي أخذ بمجامع قلبه فقال وكأن سارة أمامه يناجيها : يا قلبي النابض ، يا روحي الخفَّاقة بين جوانحي ، يا أعز من سكن القلب وتربع على عرشه ، يا أعذب نسمةٍ ضمَّختْ سمائي ، يا ألدن أيكةٍ أظلتني من هجير الدنيا ، أود من كل قلبي قبل أزوف تلك الساعة أن نلتقي في ليلةٍ كأن ليلها وُصل بألف ليلٍ ونستقل قارب الهوى العذري ونُمضي في عرض البحر ليلةً تحت ضوء القمر يتهادى بنا فوق صفحته ، وتهب نسمات الوصل الذكية -التي طالما هبت علي في وقت السحر وحيداً شجيًّاً لتُضرم أوار الحنين- ، وأتبلغ منكِ بأحاديث الهوى ، وبقبلةٍ تعينني على مجابهة جيوش الحنين الجرارة فيما تبقى لي من أيام .

ثم نظر إلى النبع وتذكر كم جلس على ضفته معها يتبادلان أحاديث طفولية عذبة فقال : ستظلين خالدة بقلبي خلود الصبا بقلوب الشباب ، وخلود الشباب بقلوب الهرمى ، فقد أحببتكِ طفلاً ، وومقتكِ يافعاً ،

وهمتُ بكِ شابّاً وستظلين سيدة القلب المستحوذة على شغافه ، كهلاً ، وشيخاً ، وهرماً ، حتى يواريني صفيح الملحد .

ثم عاد إلى المرأة التي كانتْ مُصيخةً سمعها لمناجاته وقال لها : يا أمة الله إن المكان يزدادُ خطورةً بعد هذا الوقت فعليكِ بالذهاب .

رفعتْ رأسها إليه وقالتْ وعيناها محمرتان من البكاء : دعني أيها الشيخ فهذا مكان حبي الأول وإني أعاود هذا المكان كثيراً في شيخوختي لأن قلبي أودعته شخصاً هنا في الصبا .

ثم صمتتْ قليلاً وقالتْ : ما شأن النُّدْبة التي على خدك ؟

حدثها بقصة الندبة قائلاً : كان في القرية فتاةٌ لم تضم البيوتُ أجمل وأرق منها ، وكانتْ تأتي إلى هذا النبع في بعض الأحيان وكنتُ كل يوم آتي إليه لأحظى برؤيتها عندما تأتي ، وأجلس عند الجهة المقابلة لها من النبع وأنظر إليها خلسة وهي تلعب وتلهو ، وفي إحدى المرات كانتْ واقفة أمام الأيكة لا يَريمُ ناظرها عنها فأتيتُ إليها وسألتها عن السبب فأخبرتني أنها تود لو أخذت الطير الذي أعلى الأيكة لتعتني به ، فصعدتُ إليه وسقطتُ وأُصيب خدي بسبب أحد الأغصان فلم آبه لجرحي وإن كانتْ حاولتْ إيقافي وصعدتُ مرة أخرى وأحضرته لها فابتهجتْ وذهبتْ فرحة مسرورة إلى منزلها ، وهذا ما أسعدني وأنساني ألم الجرح .

ثم نظر نحو الأفق البعيد واسترجع الماضي العتيق واخترق حُجُبَ الكهولة والشباب إلى مرحلة الصبا ، وعاد بذاكرته إلى ذلك اليوم عندما كان يمشي في الهجير والكل قد أخلد للراحة متجهاً للنبع لسقي الورود ثم قال : لقد زرعتُ الدرب الموصل إلى الأيكة ببعض الأزهار وكذلك يمين وشمال المكان الذي تجلس فيه سارة لتبهج ناظرها .

قالتْ في نفسها : إنه هو فلأقطع الشك باليقين .

قالتْ : لقد نسيتَ شيئاً .

تساءل متعجباً : ما هو ؟

ردتْ عليه قائلة : ألم تُقبِّل الصبية خدك ؟ وتهبك خاتمها عندما أحضرتَ لها الطير ؟

تعجَّب جدَّاً ثم قال : بلى قد حدث هذا ! وإنها لأنتِ سارة التي انتظرتها أعواماً طوالاً ! (وزال عجبه من جرأتها، ومبادرتها الحديث) .

أجابته قائلة : نعم ، إنها أنا ، فلا تعجب من عدم تحرُّك قلبي لحديثك لأنه معك أيها الشيخ ، فلم يملكْ قلبي أحدٌ غيرك ، ولم تـهْفُ روحي إلا إليك .

جلس قريباً منها وبدأ الحديث قائلاً : كان في قلبي صحراءُ جرداءُ فهطل عليها حبكِ فاهتزتْ ، وربتْ ، وأصبحتْ جناناً خضراءَ ،ورياضاً فيحاءَ ، بعدما كانتْ يباباً .

ردتْ عليه قائلة : ما أعجب هذا ! عندما دنت الشمسُ للغروب والقمرُ للأفول يلتقيان ! ما أعجب هذا الذي لم يُسمعْ بمثله !

أكمل حديثه قائلاً وكأنها لم تقاطعه: ولم يبرحْ حبكِ قلبي مذْ تلك الساعة ، وأصبح طيفكِ يزورني بين آونةٍ وأخرى ، فيمتلئ قلبي سعادةً لا تبرحه أياماً .

سألته قائلة : ماذا حدث لك بعد رحيلنا من القرية ؟

أجابها قائلاً : أصبحتُ جسداً بلا روح ، ولا تعلمين كم ليلة جلستُ أمام موقد النار أُنشدُ ما يَجيشُ بقلبي من حنين إليكِ ، أو أشدو ببعض أبياتٍ لشعراء سبقوني ، ولم يبق لي إلا النبع آتيه كثيراً لأستعيد ذكرى أجمل أيامي حتى اعتادته قدماي فلا تخطئانه حتى وإن أتيته بليلةٍ حالكة

الظلام لا يرى فيها أحدٌ أصابع يده ، بل وكثيراً ما أعرّج عليه أُسائله عنكِ ، وأبثه حنيني إليكِ وكأنه يفقه قولي ويعلم مرامي .

ثم نظر إلى النبع ومر بخاطره بعض ذكرياته معها فابتسم وقال : مجلسنا هذا وحديثنا وإن اختلف كنهه إلا أنه يعيد إلي ذكرى ذلك العهد الغابر والزمن المنصرم .

قالتْ أوقد وصل بك الشوق إلي إلى هذا الحد ؟

أجابها قائلاً : إني في هذه الساعة التي التقيتُ بكِ فيها -بعد هذه المدد الطويلة- كالسَّليم المُشْفِي على الهلكة سُقي الترياق الذي أعاده للحياة ، فالحمد لله الذي التقينا قبل أن يقضي أحدنا نحبه ، وما أرأف القدر وأعطفه علينا إذْ جمعنا بعد هذا العمر !

قالتْ وفي صوتها نبرة شجن : إني لم أَعُدْ كما كنتُ فيما مضى ذات جمالٍ خلاب .

أجابها قائلاً : قد قطعتُ الصحراءَ عندما اكتستْ ثوبها السندسي من أقصاها إلى أقصاها ، فمتعتُ ناظري بشيحها ، وقيصومها ، وأقحوانها ، واكتمال بدرها ، وشنفتُ سمعي بحداء رعائها ، وشدو طيورها ، ونوح قمريّها ، وبُغام ظبائها ، وخرير مائها ، وحفيف أشجارها ، وجبتُ البلدان من شرقها لغربها ، ومن جنوبها لشمالها ، فلم أر أجمل من محياكِ ، ولم أسمعْ أعذب من صوتكِ ، ونجي حديثكِ .

ثم ابتسم وقال: هذا ما كتب في اللوح المحفوظ ، وهذا قدرنا المبرم ، ومصيرنا المحتَّم ، فانظري إلى ذلك الغراب على غصن تلك الشجرة البعيدة إنه ينعب وكأنه يُخبرُ أن اللقاءَ عسيرٌ ولكنه كذب في هذه وأخفق ، فلتغرِّدْ لنا طيور الحب ، ولتتمايل الورود مع هبات نسيم اللقاء العليلة ، فقد أُبْلس الفراق ، وصُفِّد بالأغلال ، وهاهو اللقاء يتقدم

نحونا بباقات الورود مُهنئاً فابتهجي يا قرة عيني ، فو الذي نفسي بيده ، ما سكن قلبي ، وخالج أضلعي شيءٌ أعذب وأحلى من الحب ، رغم شجاه وحُرَقِه .

أثار حديثه كامن حنينها فابتسمتْ وأرختْ لثامها وقالتْ: لقد ذهب شطرٌ من حسني مع تقادم العمر ، وكر الليالي ، وتصرُّم الأيام ، فهل ما زلتَ تكن لي الود والحب ؟

نظر إليها مليَّاً ثم قال : إني أراكِ الآن كما كنتِ في ذلك العهد الذي ترتادين فيه النبع ، وتحولين حوله ، وترقصين وتعدين حول الأيكة ، وإنكِ في عيني أبهى من الشادن في كناسه ، والبدر في الدُّجْنَةِ الشديدةِ ، وكم وددتُ لو أن ساعة الزمن توقفتْ على تلك الحقبة التي كنا فيها أطفالاً يرى بعضنا بعضاً !

بل ليت عين الزمن غفلتْ عنا ، وتركتنا في لهونا وأنسنا ، وذهبتْ إلى غيرنا ! ولكنها الأقدار تجري بما لا تشتهي الأنفس وتهوى القلوب .

قالتْ : ألا يُشجيكَ لقاؤنا بعد هذا العمر الذي دَنَتْ فيه شمسُ حياتنا للمغيب ؟

رد قائلاً : لا ، إنه لا يُشجيني ، بل إني أحمد الله أننا اجتمعنا قبل أن يوارينا رمسنا ، هذا ما كنتُ أصبو إليه وأرومه منذ أمدٍ بعيدٍ ، فعندما وقعتْ عيني عليكِ في زمن الصبا اشتعل في قلبي أتون هوى لم يَخْبُ إلى الآن ، وكم رأيتكِ في كل طائرين يغردان أمامي ، وكم رأيتكِ في شروق الشمس ، وبزوغ القمر ، ولمعان النجوم ، وجريان الأنهار ، وتمايل الأزهار مع هبات النسيم ، بل كم رأيتكِ في كل بسمة ، وفي كل نظرة ، وهاهي السعادةُ فاتحةٌ ذراعيها لتحضننا ، فما أسعدني في هذه اللحظة .

ثم التفت إليها وقال : أتعرفين جبل الشجو الأشم ؟

أجابته قائلة : لا، لم أسمعْ به من قبل ، فماذا يكون ؟

فأشار إلى قلبه وقال : ها هنا جبل الشجو الأشم الذي لم يبرحْ فؤادي مذْ أيفعت .

ثم قال : أسمعتِ ببحر الصبابة الزاخر ؟

فابتسمتْ وقالتْ : نعم ، إنه بحر الحنين ذي الأمواج المتلاطمة في قلبك .

فابتسم وقال : أسمعتِ بشجرة الوجد ؟

فابتسمتْ وقالت : نعم ، إنها شجرة الحب في قلبك .

فأجابها قائلاً : نعم ، إنها شجرة الحب ولكنه حُبُّكِ أنتِ لا حب سواكِ ، فهي شجرة حبكِ التي نبتتْ في قلبي ، وتجذرتْ ، وبسقتْ أفانينها ولدنتْ .

أطرقتْ برأسها وقالتْ : وهل أستحق منك كل هذا الحب ؟

فأجابها : بل هل قلبي يستحق أن يُشغفَ بكِ ويُتَيَّم ؟

ثم طال الصمت بينهما فقطعته سارة بقولها : وأيم الله لفرحتي برؤيتك ولقائك أعظم من فرحة أمٍّ حُرمتْ من أبنائها مدة عقدين من الزمان ، وعندما غمرها طوفان اليأس أتوها مع زوجاتهم وأبنائهم .

بل فرحتي أعظم من فرحة من اغترب عن بلاده ، وعندما آب من ديار الغربة وجد فرحاً مُقاماً ولم يكنْ إلا فرح زفافه على من أحب .

بل فرحتي أعظم من فرحة الفتاة بارتدائها فستان الزفاف الأبيض .

وأيم الله لفرحتي بلقائكَ ورؤيتكَ أعظم من فرحة الأم بأبنائها ، ومن فرحة المغترب بأوبته وليلة عمره ، ومن فرحة الفتاة بارتدائها الفستان الأبيض ، ولتعلمْ أن بقلبي من الومق مالا أستطيع وصفه والحديث عنه ، ولكن هذا ما فاض منه .

ثم أخرج من جيبه العشبة وأعطاها إياها وأخبرها بما حدث ، وما كابده في سبيل الحصول عليها فقالتْ : في ذلك الوقت اجتاحتني موجة حنينٍ عارمةٍ كادتْ تقضي علي وربما أنك علمتَ بهذا من اتصال الأرواح كما قيل .

ابتسم وأمسك بيدها كما كانا فيما مضى وبدآ يجولان عند النبع وحول الأيكة فقال لها : كم تمنيتُ هذه اللحظة مذْ أصبحتُ يافعاً ، وهاهي تتحقق الآن بعد مضي هذه السنين الطويلة .

كان التأثُّرُ واضحاً على دريال ، وعندما أنهى هاردل الحكاية التفتَ فرأى دريالَ يبكي فقال : ما الذي أشجى قلبك وأسال دمعك ؟

قال دريال : لقد أخذت القصة بمجامع قلبي ، فلم أملكْ دموعي التي انهمرتْ رغماً عني .

ثم صمتَ قليلاً وقال : هناك بعض الكلمات لم أفقهْ منها شيئاً مثل : شفيعة ، وكذلك يوم القيامة ، ودار المقر والخلود ، وأيضا البعث والنشور .

قال هاردل : إن هذه الحكاية من الحكايات التي يقصها علينا الحالم .

تفاجأ دريال جدَّاً وقال : أهذه من الحكايات التي يرويها لكم ؟!

أجابه هاردل قائلاً : نعم ، إنها إحدى الحكايات التي شدتني وأسرتني .

قال دريال : كيف حفظتها إذاً .

قهقه هاردل وأظهر الكتاب الذي كان يقرأ منه وقال له : لقد كنتُ أقرأ من هذا الكتاب ولم تُلاحظْ هذا لأنكَ كنتَ مُنسجماً تمام الانسجام مع الحكاية التي ...

أخذ دريالُ الكتاب من يد هاردل فلم يَفْهَمْ شيئاً مما به فسأله قائلاً : كيف استطعتَ القراءة ؟

أجابه هاردل : لقد تعلمتها من الحالم الذي أُجالسه كثيراً ، والغريب في الأمر أنه من بلاد فرنسا .

تَبسَّمَ دريال وقال : نعم ، نعم ، الآن عرفتُ سبب تغيُّبكَ المتكرر عنا ، وعن عدم حضور الحالم في بعض الأوقات .

ثم صمتَ قليلاً وقال : ما معنى الكلمات التي سألتكَ عنها ؟

أجابه هاردل قائلاً : إن هذه القصة إحدى قصص كُتَّاب الشَّرق لذلك وردتْ فيها هذه الألفاظ التي اسْتَبْهَمَ علي فهمها ، وقد سألتُ الحالم عنها فأخبرني بما أخبرتكَ به .

ثم نهضا واتجها إلى مَجْمَعِ أترابهما ، وانضمَّا إليهم في لهوهم ومرحهم وأنسهم وانشراحهم .

❖❖❖❖❖❖❖

الرحيـل

كان هاردلُ يذهبُ كلَّ يومٍ إلى حقل نيرمال التي ما إن تراه حتى تُشيحَ بوجهها عنه وتُقْبلَ على عملها ، أو تدخل إلى الكوخ وتُوصد الباب ، ولم تُفلحْ محاولاته في الحديث إليها ، ولم تُنصتْ إليه عندما دنا منها في إحدى المرات وبدأ في الاعتذار إليها وكأنَّ في أذنيها وقراً ، فسَئِمَ من هذا ، وشعر أنه أراقَ ماء وجهه ، وسَفَحَ دم كرامته على أعتاب بابها ، ولم يزدْها هذا إلا عناداً وتعنُّتاً ، فلم يَعُدْ يأتي إليها ، أو يُعرّج عليها ، بل يتجه إلى الشاطئ ويطيل التأمل ، وكان دريال يعتوره الأسى لحال صديقه ولكن ماذا يفعل .

في أصيل ذلك اليوم قال هاردل وهو يدير ظهره لدريال ويمشي بضع خطوات : الوداع أيها الصديق العزيز فقد حزمتُ أمري على الرحيل من هذه الجزيرة إلى بلاد مارينا ، ولم يَعُدْ بإمكاني المكوث هنا أكثر من هذا .

نهض دريال وجسمه يرتجف ، ثم أمسكَ بكتف هاردل وأداره إليه وقال له : أتُراك عازماً على هذا ؟

قال هاردل بصرامة : نعم ، لقد حزمتُ أمري ولن يحولَ شيءٌ أمام ما عزمتُ عليه .

قال دريال : وبماذا ستُبحر ؟ وهل تُجيدُ الإبحار جيّداً ؟ وهل تَعرفُ الطريق المؤدّي إلى بلاد مارينا ؟

قال هاردل : لا تخش علي شيئاً فلقد أعددتُ قارباً عملتُ عليه عدة أشهر ، وكذلك أعطتني مارينا أداةً مستديرةً تسمى البوصلة وعلمتني طريقة عملها وأخبرتني أن بلادها في الشمال الشرقي من جزيرتنا .

ندَّتْ دمعةٌ من عين دريال لم يستطعْ حبسها ثم قال بصوتٍ متهدّجٍ : هل ستترك أمك وأباك وهذه الجزيرة التي درجتَ فوق ترابها ؟ وتنفَّستَ

هواءها ؟ وشربتَ من مائها ؟ وأكلتَ من خيراتها ؟
هل ستترك مرابع صباكَ ؟ وأصدقاء طفولتكَ ؟ وتذهب إلى بلادٍ تجهلها وتجهل أهلها ؟
ثم صمتَ قليلاً ليرى وقع كلماته على هاردل ولما رأى تعابير وجهه جامدة قال له : لمن ستترك نيرمال التي لا ترى في الدنيا سواك ولا تهوى إلا أنت ؟ هل سترحل وتتركها فريسة للهمّ والسقم ؟
قال هاردل : إن أمري لم يَعُدْ يعنيها ، وقد رمتني خارج قلبها وأغلقته ، ولم تُنصتْ لاعتذاري إليها فيكفي ما أرقته من ماء وجهي ، وما سفحته من دم كرامتي على أعتاب قصر حبها .
قال دريال : إنها تُكابر ولكنها تُحبُّكَ ، وتَذوبُ شوقاً إليك ، فهل ستتركها وحيدة تقاسي الوحدة وتصارع الشجن ؟
إني أراقبكما عن كثبٍ عندما تكون عندها تتحدث إليها وهي منصرفة عنكَ فتنهض مغتاظاً من تجاهلها لك وعدم إقبالها عليك ، فتنهض هي على إثْرك وتنظر إليك وبيدها المنجل حتى تغيب عن ناظرها .
إنها تُحبُّكَ يا صديقي العزيز وإن أظهرتْ خلافه فلا تتركها لوحدها تقتلها الغيرة من ناحية ورحيلك من ناحية أخرى .
مرتْ بمخيلة هاردل نيرمال وهي طريحة الفراش تعاني السَّقم فظهر الحزن على قسمات وجهه وأطرق برأسه إلى الأرض ولما رأى دريال أن ذكر نيرمال أحدث بعض التأثير أكمل حديثه قائلاً : يا للفتاة المسكينة لقد أحبَّتكَ من كل قلبها ، وأخلصتْ لك ، ثم ها أنتَ ذا تعزم على السفر وتتركها بين فكي السقم .
قال هاردل : أنتَ تعلمُ يا دريال أني أُحبُّ نيرمال كثيراً ولولاها ما مكثتُ في الجزيرة إلى هذه الساعة .

قال دريال : كان هذا في الماضي أما الآن فقد أزاح حُبُّ مارينا حُبَّ نيرمال ، وأصبحتْ لا تعنيك لا من بعيدٍ ، ولا من قريب .

قال هاردل : أخطأتَ يا صديقي العزيز ، وأسأتَ الفهم ، لو قُبِّض لهذه المضغة التي في صدري أن تُحدثكَ لأخبرتْكَ كم أُحبُّ نيرمال وأَهيمُ بها ، ولا يُؤنسني إلا التفكير بها ، وأشهى الأحاديث إلي ما كان عنها ، وأسعد لحظاتي هي اللحظة التي أراها فيها وأُحادثها ، والتعريج كثيراً على المكان الذي رأيتها فيه أول مرةٍ تَحْملُ سلَّةَ الصَّيد ، وحب بعض الأماكن وارتيادها وإن لم يكن لي فيها حاجة لأنها كانت مكان لهونا ، وتُيِّمتُ بالصِّبا أشد تتيمٍ لأني رأيتها وأحببتها فيه ، فما سعادتي إلا بقربها ، وما شجني وسقمي إلا ببعدها وهجرها ، فكيف لك أن تقول بعد هذا أني لا أحبها ؟ ولا تعنيني لا من قريب ولا من بعيد ؟

رد دريال قائلاً : ما دمتَ تُكنُّ لها كل هذا الحب فلماذا ستهجر الجزيرة ؟ أم أن الحنين إلى مارينا هو من يَقودكَ ويُسيِّرُ خُطاك ؟

قال هاردل : لقد هطلتْ غيمة حب نيرمال الممطرة على بيداء قلبي القاحلة ، فاهتزتْ وربتْ ، وأنبتتْ شجرةً جذورها الصدق ، وأفانينها الإخلاص ، وأوراقها السمو والنقاء ، وثمارها الخلود ، وأضحتْ آمنةً من رياحِ التَّقلُّبِ والتغيُّر ، ولن أنساها حتى ولو أُبْدلَ قلبي بقلبٍ آخر ، فالدماء في جسدي التي سيضخها القلب يسري فيها حُبُّ نيرمال الذي استحوذ على شغاف قلبي واندمج مع الروح وتأصَّل ، ولكن يا صديقي العزيز لدي حلمٌ أود تحقيقه وعندما أحققه سآتي لأقترن بنيرمال وأُؤَمِّن لها كل سُبُلِ الرَّفاهية وبلَهْنية العيش الرغيد ...

قاطعه دريال قائلاً : لقد أسأتَ من حيث أردتَ الإحسان .

قال هاردل : وكيف هذا ؟

قال دريال : ألم تفكر إلى ماذا ستؤول إليه حال نيرمال في المدة التي ستقضيها بعيداً عنها ؟ ألا تعلم بأنها لا تؤْثر عليك أحداً ، وأنها تود العيش معك في شظف العيش ، وتعُبُّ من كأسِ السعادةِ الذي لا تجده إلا عندكَ ، على التقلُّب في أعطافِ الرَّغدِ ، وأكناف النَّعيمِ مع غيرك .

ظهر التأثُّر على قسمات هاردل مرة أخرى وقال : لن أُطيلَ المكثَ هناكَ وسأعودُ في غضون عامين على الأكثر .

قال دريال : لم أُقْحمْ نيرمال بالحديث إلا لكي تمكث ولا تبرح الجزيرة ، وما دام الحديث عنها لم يُؤثِّرْ فيك فلن يُؤَثِّرَ فيكَ الحديث عني ، ولا الفراغ الكبير الذي سيخلِّفه رحيلكَ عني وابتعادكَ عن ناظري ، فلا أحد من أهل الجزيرة سيملأ الفراغ القاتل .

ضمَّ هاردل دريال وقال: أنتَ أعزُّ صديقٍ لدي في هذه الجزيرة ولن أنساكَ ، ومهما ابتعدتْ أجسادنا فإنكَ مقيمٌ بقلبي لا تبرحه .

مضتْ عدةُ أيامٍ على حديث هاردل ودريال حتى أتى ذلك اليوم البئيس الذي لن ينساه دريال ما دام على قيد الحياة عندما استيقظ وخرج من الكوخ فرأى الناسَ في هلعٍ وجزعٍ ، ورأى نيرمال فأتى إليها مُستنبئاً عما يحدث ، فأخبرته أن هاردلَ مفقودٌ وأنهم يخشون أن تكون إحدى الحيوانات الكاسرة قد افترسته ، أو أن قبيلة النرفلون خطفوه للعداء المستحكم بين قبيلتنا وقبيلتهم وأن الرجال قد مضوا للبحث عنه .

أطرق برأسه مستعيداً ذلك الموقف عند الشاطئ عندما أخبره هاردل عن عزمه على السفر ومُبارحة هذه الجزيرة لتحقيق حلمه ، ولم تُفلحْ محاولاته في ثني عزمه بترقيق قلبه بذكر والديه وحب نيرمال .

تأوَّه عندما مر به هذا الخاطر وقال : ليته أخبرني بموعد رحيله لأودِّعه ! أو لأحزم أمري وأرافقه !

قالتْ نيرمال : ماذا قلت ؟! أتُراك علمتَ برحيله والوجهة التي يقصدها ؟ بربك أخبرني لأخبر الرجال قبل فوات الأوان فأي جهة قصد ؟

قال دريال: على رسلكِ يا نيرمال لو كان عندي علمٌ بعزمه على الرحيل لما تركته يرحل ، ولو علمتُ أين يقصد لتبعته وأتيتُ به .

ردتْ نيرمال قائلة : فما هذا الحديث الذي تفوَّهْتَ به ؟

قال دريال : إنه حديثُ المشدوه مما يرى ويسمع .

صمتتْ نيرمال على مضضٍ والشك يساورها بأن دريال على علمٍ برحيل هاردل والوجهة التي أمَّها .

عند الأصيل عاد الرجالُ والحزن يعلو قسمات وجوههم فأفصحتْ تقاسيم الشجن المرتسمة على وجوههم عما تُكنُّه ضمائرهم ، وتُخفيه قلوبهم ، فلم يَسألْ أحدٌ عن هاردل لأنهم علموا أنهم لم يجدوه .

لم تهجع الأمُّ ولا الأبُ في تلك الليلة ، فما إن تَسمع الأمُّ حفيف الأشجار التي يُحرِّكها الهواء حتى تظن أنه صوتُ وقع أقدام هاردل فتهرع إلى الخارج فلا ترى إلا الظلام الدامس ، وإذا رأتْ ظلاً يَلوحُ أمَّتْه لاعتقادها أنه ابنها .

لم تَكنْ تلك الأعينُ الوحيدةُ التي لم يَغْمُضْ لها جفنٌ ، بل كان هناك عينان ساهرتان لم يجد النَّومُ إليهما سبيلاً ، إنهما عينا المتيَّمة نيرمال التي ما فتئتْ تفْتَحُ الباب وترنو إلى جهة الشاطئ لعل طيف هاردل يَلوحُ لها ، أو تخطو بضع خطواتٍ إلى جهة الغابة وتحد النظر لعلها ترى شيئاً ، ولكن دون جدوى .

أطلَّ الصباحُ الكئيبُ الذي عَقِبَ اختفاء هاردل وعلى منضدة الطعام كانتْ نيرمال ساهية ، وعندما رفعت اللقمة إلى فيها أوقفتها في منتصف المسافة وسرحتْ بخيالها بعيداً إلى ذلك اليوم الذي أتى فيه هاردل إلى

حقلهم وعندما رأته نهضتْ وذهبتْ معه إلى شجرةٍ قريبةٍ من الكوخ وبدأ الحديث ، ولكنه حديثٌ على غير العادةِ ، حديثٌ مؤطَّرٌ بإطار الشجن ، والألم ، والفراق ، والوداع ، والصبر ، والتدرع بالسكينة ، حديثٌ لم تَفهَمْ كنهه ولا المغزى منه إلا بعد رحيله .

في بداية الأمر ظل صامتاً يَنظُرُ إليها تارةً ، ثم يَنظُرُ إلى الحقل تارةً أخرى ، ثم يَنظُرُ إلى السماء ويُطيلُ التأمل ، ثم قال لها فجأةً عندما رأى سِرباً من الطيور تُحلِّقُ في الفضاء : أترين هذه الطيور المحلقة ؟

إن الشَّبَهَ بيننا كبيرٌ جدَّاً ، فهي تذهب للبحث عن طعامها وشرابها ، أو تُهاجر إلى أماكنَ أكثر دفئاً في الشتاء ، ونحن كذلك قد نُهاجر خلف أمانينا وطموحاتنا .

ثم صمتَ قليلاً ثم قال وهو يَنظُرُ إلى الجهة التي فيها الشاطئ : الأيامُ تَمُرُّ عجلى ، والدنيا لا تَقِفُ عند أحدٍ ، فيجب اقتناص الفُرص ، والسعي خلف ما نرنو إليه ونطمح ونهفو ، وإلا فلن يُحقِّقَ أمانينا القعود والكسل والاتكال على الحظ .

إن من الحمق المكوثَ والتريُّثَ عند سُنوح الفُرص المناسبة لتحقيق الأماني ، وإن قلبي ليكاد يَفرُّ من صدري من الشوق الذي أشعر به لتحقيق ما أصبو إليه ، وإني لأنتظر بكلِّ شَغَفٍ تلك الساعة التي أُحقِّقُ فيها أمنيتي .

ثم نظر إليها فاحمرتْ وجنتاها وأطرقتْ برأسها وقالتْ : أنتَ أعزُّ شيءٍ بالنسبة إلي ، وقُربكَ هو غاية أملي وأمنيتي .

فابتسم ولا تعلم سرَّ ابتسامته ألأنها اعترفتْ له بمكنون قلبها ، أم لأن حديثه في وادٍ وحديثها في وادٍ آخر ، ثم قال لها : كثيراً ما تَحولُ الحوائلُ دون ما نصبوا إليه ، ولكن لا يعني هذا الاستسلام والإخلاد للكسل ،

ورفع الراية التي تَدُلُّ على الضَّعفِ والخُضُوعِ ، بل لا بدَّ من المحاولة ، وسلوك عدة سُبُلٍ إلى أن يَتحقَّقَ ما نريد .

لتعلمي يا نيرمال أن لدي عدة أمانٍ أسعى لتحقيقها ، وإن طُويتْ صفحتي قبل تحققها ،فيكفي الشعور بالسعادة الذي أشعر به وأنا أسعى لتحقيق آمالي وطموحاتي .

أفاقتْ نيرمال من شرودها على صوتِ أمها وهي تقول لها : ماذا دهاك يا ابنتي ؟ لقد سألتكِ عدةَ مراتٍ لماذا لم تأكلي اللقمة التي في يدكِ بعد ، ولكنكِ لم تجيبي ؟

أنزلتْ نيرمال اللقمة إلى القصعة ثم نهضتْ وهي تقول : اعذراني فلا رغبة لي بالطعام ولا شهيَّة لدي .

ثم خرجتْ خارج الكوخ وسط نظرات والديها المتعجّبة من هذا التصرُّف واتجهتْ إلى الشاطئ وجلستْ ودموعها تنحدر على وجنتيها وهي تقول : ارحلْ يا ساكن القلب ، وامتطِ قارب النأي ، قارب السقم ، قارب الموت الزُّؤام ، واظعنْ خلف أمانيك ، فعيناي سترقبك في غربتك ، وقلبي سيرعاك بالحنان ، ومشاعري ستظل على توقُّدها ، وإن حالتْ بيننا جبالٌ وبحارٌ ، وسأبعثُ إليك حنيني مع كل هبَّة نسيم ، وسأتلو عليك في غربتكَ تراتيل الحنين لقلب فتاةٍ أدنفها ظعنك ، وأضناها نأيك ، فاظعن فنفسي لكَ الفداءُ من كلِّ ضيمٍ ، أو شجىً يَحُلُّ بكَ ، وسأظلُّ أنتظرُ طيفكَ في أحلامي ، وأوبتك في صحوي ، وإن طال التنائي فلن يهفو قلبي لسواكَ ما حييت .

وبدأتْ تتأمل الأمواج المصطخبة وأطالت التأمل ثم قالتْ تناجيها : ليت لكِ فماً ينطقُ لأستنبئكِ عن هاردل ! وعن أيِّ سبيلٍ سلك ! أكنتِ له كالأم الرؤوم ؟ أم كالعاشقة الولهى فاجتاز صفحتكِ بكلِّ

سهولةٍ ويسرٍ ؟ أم كنتِ كالعدُّو الغاضبِ ، والوحشِ الهائجِ ، فوجَّهْتِ إليه جيشكِ اللَّجب وهو وحيدٌ أعزلُ ، فاستقرَّ في قاع جوفكِ بلا نصيرٍ يَنصُرُه وعضيدٍ يُؤازره ؟

أواهُ من الهجر ما أقساه ! والوداع ما أشجاه ! أي فَجٍّ سلكَ ؟ وأي أرضٍ قصدَ ؟ وأي بلادٍ أَمَّ ؟ أوصل إلى وجهته ؟ أم حالتْ دونها الحوائل والغوائل ؟

ألم ترأفي بهذه الضَّعيفة التي ملك جوارحها حُبُّه ؟ فعطفتِ عليها ، وأطلقتِ سراحه ، وأعتقتِ رقَّه لأجلها ، فما حياتها بدونه ؟ وما سعادتها ببعده ؟ وما صحتها برحيله ؟

إن الشَّوقَ يَستعرُ في فؤادي ، والحنينَ يَضطرمُ بين جوانحي ، وليس هناكَ ما يطفؤهما إلا رؤية هاردل والحديث إليه .

صدق هاردل عندما قال : إن الأيامَ تَمُرُّ عجلى ، والدنيا لا تقف عند أحدٍ ، فيجب اقتناص الفُرص ، والسعي خلف ما نرنو إليه ونَطْمح ونهفو ، وإلا فلن يُحقِّقَ أمانينا القعود والكسل والاتكال على الحظ .

ما كان يجدر بي القعود ، بل كان يجب علي النهوض والسعي خلفه ، والبحث عنه ، فما القعود إلا علامة الضَّعْفِ والجبن .

ثم صمتتْ قليلاً ثم قالتْ : نعم ، يجب أن أكون كما قال لي هاردل أصيل ذلك اليوم : عندما تحلولك الأيام فلا تيأسي ولا تبتئسي فلا شيء يدوم على حال ، انظري إلينا بالأمس كنا أطفالاً ، واليومَ فتياناً ، وغداً نَشِبُّ ، وبعد غدٍ نَشيْبُ ، وهكذا المصائب ستضمحل ، ألا ترين السَّقيمَ يَزولُ سقمه ، والجريحَ يَلتئمُ جرحه ، والشَّجيَّ يَضمحلُّ شجاه .

ثم صمتتْ قليلاً ثم قالتْ : لتبرقي يابوارق الأمل ، ولتهطلي يا سحائب السكينة ، لتحيا بساتين الأمل ، وتورق أفانين السعادة ، وتجري أنهار

الطمأنينة .

كان دريالُ قريباً منها يَستمعُ إليها وهي لا تشعر ثم قال يُحدِّثُ نفسه : ما أعجب أمرها ! بالأمس تُشيحُ عنه ولا تُنصتُ لاعتذاره ، واليومَ متيَّمةٌ به مشغوفةٌ ، تَسْألُ عنه ، وتَحنُّ إليه ، أما كان الأجدر بها لو كان هذا أثناء وجوده لعله يكون سبباً لمكوثه ، ولكنها الأقدار !

ثم تقدم إليها فلما رأته قالتْ له : مذْ متى وأنتَ هنا ؟

رد عليها قائلاً : مذْ هنيهة انتهى بي المطاف إلى هنا فرأيتكِ فأتيتُ .

قالتْ له : مذْ رحيل هاردل وأنا آتي إلى هنا كل يوم فأجد بعض الراحة .

رد عليها دريال قائلاً : لقد تأخَّرَ الوقتُ ويَجبُ علينا العودة .

فنهضتْ متثاقلةً وخطتْ بضعَ خطواتٍ متَّئدةٍ ، ثم وقفتْ ونظرتْ إلى البحر وندَّتْ من بين شفتيها آه .

❖❖❖❖❖❖❖

برفنور

اعتلى هاردلُ سطح القارب وبدأ التَّجديف في الصباح الباكر ، وهو على يقينٍ تامٍّ أن غيابه لن يُلحظَ إلا بعد الأصيل حين يتأخر في المجيء ، حينها يكون قد ابتعد عن الجزيرة كثيراً ولن يَستطيعَ أحدٌ اللحاق به .

ثم نظر إلى جهة الجزيرة وقال : انتظريني يا نيرمال فسيأتي يومٌ آتي إلى هذه الجزيرة على بساط العزِّ والثَّراء والتَّقدُّم ، وأُمسكُ بكفيكِ اللذين سينوء معصميهما بدمالج الذهب المرصَّعة بالدُّرِّ والياقوت ، وأُطوِّق جيدكِ الأتلع الذي سيزدان بعقد الذهب المطعَّم بالجواهر ، وقوامكِ الأهيف الميَّاس الذي سيزدهي بثوب الحرير الموشَّى باللآلئ ، ونتجول معاً في هذه السهول وعلى ضفاف الأنهار والجداول ، ونفترش نضائد الحرير ، وننشر حبَّنا على قُلَلِ الجبال ، ورؤوس التلال ، ويَفَاعِ الرَّوابي ، وستغْربُ شمسُ الغربة ، والشَّجى ، والنأي ، والبُعْدِ ، وسنمتطي صهوة اللقاء ، ونتفيأ الأيكة التي كنا فيما مضى نستظل بظلها عن الهجير ، ونتحدث تحتها يافعين محبين ، سنتفيؤها زوجين سعيدين ، فانتظري فلن يطول الانتظار والغياب .

ثم أطرق برأسه وأسبل دموعه ثم نظر إلى الجزيرة ودموعه تنهمر وقال : لكِ بقلبي قصرٌ أفيحُ مُنضَّدٌ بنضائدِ الحريرِ والدِّيباجِ ، وبإيوانه عرشٌ لا تسفيه سوافي التغيُّر والسلو ، مُحاطٌ بحديقةٍ غنَّاء ، أنتِ نهرها الرقراق ، وزهرتها العابقة ، وأيكتها الظليلة ، وهزارها المغرِّد ، وطفلتها المدلَّلة ، فإن أرمضكِ الشجى ، وضاقتْ بكِ السبل ، فعودي إليه فأنتِ أميرته وملكته بلا منازع ، والقلب لكِ فداءٌ من نوائبِ الأيام ، وحوادثِ الزَّمان .

سارتْ الرحلةُ على المأمول فالماءُ ساكنٌ ، والرياحُ مواتيةٌ ، ومضى يومان وبدأ السأمُ يَتسلَّلُ إلى قلب هاردل ولكن حدث ما أزال السأم وأبدله بالخوف فقد اكفهر الجو ، وهاجت الأمواجُ وماجتْ ، وكأن البحر

غضب من هذا الفتى الجريء الذي اقتحم تُخُومَ ملكه ، فأراد تلقينه درساً بألا يَستهينَ بالمخاطر ، ويُقلِّلَ من شأن الغير .

أصبح القاربُ كالريشة في مَهَبِّ الرِّيحِ بين هذه الأمواجِ المُصْطَخبةِ ، ولم يكن لدى هاردل الخبرة في مثل هذه المواقف ، فبدأ التجديف حتى كَلَّ ساعداه ، ولم يَلحظْ في خِضَمِّ هياج البحر ، والذعر الذي تملَّكه ، والكرب الذي هو فيه ، أنه قريبٌ من اليابسة فغرق القارب فحاول السباحة ولكن التَّجديف استنفد قواه وبدأ يَفْقدُ وعيه بالتَّدريج ، وأثناء ذلك شعر بشيءٍ يُلامسُ جسده فإذا به قارب فتَحاملَ على نفسه وأمسكَ به وصَعَدَ إليه ، وعندما اسْتقرَّ فيه أُغْميَ عليه ، وعندما أفاق رأى أمامه رجلاً يُلقي على النار بعض الحطب لتزداد اضطراماً ، فأجال طرفه في الردهة فرأى شبكةَ صيدٍ في الزاوية ، وفي المُنْتصَفِ منضدةٌ مستديرةٌ للطعام وكرسيان للجلوس ، وفي الجانب الأيسر درجٌ يُؤدي إلى الطابق العلوي ، وأيمنَ الموقدِ سريرٌ من الخشب ، فتساءل أين هو ؟ وما الذي أتى به إلى هذا المكان ؟ فأتى إليه الرجل وقال له : أخيراً أفقت من غيبوبتك يا بني ؟

نظر إليه هاردل فإذا بالذي أمامه رجلٌ يخطو على أعتاب الخمسين ، أسمرُ السَّحْنةِ ، مَعْرُوقُ الوجه ، غَائرُ العينين ، خَفيْفُ العارضين ، ذو جَسَدٍ نَحيلٍ ، فتأمله قليلاً ثم قال له : ما الذي حصل لي أيها العم ؟ وما الذي أتى بي إلى هنا ؟

فأجابه قائلاً : هبتْ عاصفةٌ هوجاء الليلة البارحة ، وعندما هدأتْ خرجتُ لأتفقَّد الحقل فلم أر به بأساً ، وعندما أتيتُ لأرى الضَّرر الذي أصاب القارب لم أَجدْه فالتفتُّ يمنةً ويسرةً فرأيته على بُعْدِ أمتارٍ فأتيتُ ووجدتُكَ فيه فحملتُكَ إلى الكوخ حيث وضعتُكَ قرب النار حتى جفَّتْ

ملابسُكَ ، ثم حملتُكَ إلى السَّرير إلى أن استيقظتَ هذه الساعة .

ثم قدم له كأساً وقال له : في هذا المشروب أعشابٌ سَتبعثُ الدفءَ في جسدكَ فاشربه .

تناوله ، وشربه ، وقطَّبَ جبينه ، وأغمض عينيه ، دلالة المرارة وعدم استساغته إياه ، فضحكَ الرَّجلُ وقال : عندما كنتُ في سنِّكَ كنتُ أهرب من شربه عندما أُصاب بعارضٍ صحيٍّ جرَّاء البرد ، وفي بعض الأحيان أسكبه ، فإذا لم يبرحني السَّقمُ لعدم تناول الدواء سقاني أبي نبتة ينقعها بالماء مدة يوم مرارتها أشد من الحنظل فيجبرني على تناولها فأضطر إلى هذا خشية العقاب .

تبسم هاردل واعتدل في جلسته ثم قال له : أيها العم أين الجزيرة التي تقطنها قبيلة المراديرا ؟ أهي قريبةٌ من هنا ؟

نظر إليه سيرفال بارتيابٍ وقال له : من تكون أيها الفتى ؟ وما الذي أتى بك إلى هذه الأرض ؟ وهل أنتَ من قبيلة النرفلون وتريد خداعي بقولك هذا ؟

أجابه هاردل قائلاً : لا يذهبْ بكَ الظَّنُّ إلى هذا الحدِّ فأنا من قبيلة المراديرا وبيننا وبين قبيلة النرفلون عَدَاءٌ مُستحكمٌ سُفِكَ بسببه الكثيرُ من الدِّماء التي لا أظنها سَتَجفُّ إلا بفناء إحدى القبيلتين ، وأرضي هي جزيرة أرابودس التي تلي جزيرة قبيلة النرفلون .

ما زال الشكُّ مُرتسماً على وجه سيرفال فقال له : لقد عركتُ الدنيا وعركتني ، ومثل هذا القول اللينِّ لا يُزيلُ الشَّكَّ من قلبي ، فأثْبتْ لي أنَّكَ لستَ منهم .

قال هاردل : سلني عما شئت من أمر أرابودس وسأنبؤك عنه بما أنكَ قضَيتَ عدةَ أشهرٍ فيها .

قال سيرفال : ابنُ من أنتَ ؟

قال هاردل : أنا هاردل بن فرندل .

زالَ العُبوسُ عن وجهه وابتسم وقال : يا لصديقي العزيز أما زال يَحتَفظُ بالبندقية ؟

قال هاردل : لا ، فقد سُرقتْ منه وأَسفَ لهذا كثيراً وقد أخبرني أنه أهداها إياه رجلٌ بعدما أنقذه من الغرق .

رد سيرفال قائلاً وقد ظهر عليه التأثُّر: واأسفي على هذا ! لقد كانتْ تذكاراً ثميناً .

قال هاردل محاولاً تغيير مجرى الحديث لما رآه من الكدر الذي ظهر على قسمات وجهه : أَتَسْكُنُ وحدكَ في هذا الكوخ ؟

أجاب سيرفال والتأثُّر ما زالَ مرتسماً على قسمات وجهه : لا ، إني أسكنه أنا وابنتي وهذا أوان مجيئها .

في أثناء حديثهما دخلتْ سيدرا ابنة سيرفال فقال أبوها مُحيِّياً : أهلاً بكِ يا ابنتي .

ثم أشار إلى هاردل وقال : هذا هاردل ابن صديقي العزيز فرندل الذي حدَّثْتكِ عنه فيما مضى وسيمْكُثُ معنا هنا .

تقدمتْ سيدرا إلى هاردل ثم انْحَنَتْ وقالتْ : أهلاً بك ، وسعيدان بمكُوثكَ عندنا لنرد جميلَ أبيك .

ثم مضتْ وصعدت الدرج إلى الطابق العلوي واستلقتْ على السرير وقطبتْ ما بين حاجبيها وقالتْ : أتظن ابنة عرندل أنها أجمل مني وأشرف لتنظر إلي بازدراءٍ واحتقارٍ كما حصل اليوم عند النهر .

ألا تعلم أني ابنةُ زعيمِ القبيلة ، وأنها من أَراذلِ القوم فما أبوها إلا صيادُ سمكٍ تافهٍ لا يُعرفُ عنه إلا إثارة القلاقل والفتن .

ويحها أتجرؤ بعد هذا على ازدرائي وبيني وبينها كما بين الثَّرى والثُّريا من السُّؤدد والمجد المؤَثَّل ؟

ثم صمتتْ قليلاً ونظرتْ من النافذة المطلة على باحة الكوخ ثم قالتْ : هكذا الأنفسُ الدنيئةُ ، والقلوبُ المريضةُ ، تُحاولُ تَعويضَ الذُّلِّ والنَّقصِ اللذين تشعر بهما بازدراء الآخرين وانتقاصهم .

ثم أطلتْ مرة أخرى من النافذة على الباحة أمام الكوخ وسرحتْ بخيالها ، ثم أفاقتْ على صوت أبيها يناديها ، فنزلتْ فقال لها : إن الطَّعامَ جاهزٌ يا ابنتي فهيا لتناوله قبل أن يبرد .

ثم تحلقوا حول المائدة وبدؤوا تناول الطعام وعندما انتهوا صعدتْ سيدرا للطابق العلوي للراحة واتجه هاردل إلى الموقد واحتبى وبدأ يُفكِّرُ بما آل إليه أمره ، وكيف السَّبيلُ إلى الخروج من هذه الجزيرة التي عَلِقَ فيها بغير اختياره ، ولم يَطُلْ به التفكير حتى شعر بكفٍّ تَضْربُ على كتفه فالتفتَ فرأى سيرفال فقال له : هيا يا بني لنتفقَّد حال أهل الجزيرة .

نهض ومضى معه ، وتجولا بين الأكواخ ، ورأيا النساء منهمكاتٍ بالعمل ، وعند النهر الفتيات يتراشقن بالماء ، ويعْبثن حوله ، وعند الشاطئ الأطفال يتراكضون ، ويجمعون بعض الصَّدَف ، وعندما عادا أويا إلى النوم ، وفي صباح اليوم التالي ذهب هاردل ولم يُخْبرْ أحداً بذهابه ولم يَعُدْ إلا مع الأصيل .

استمرَّ على هذا كل يومٍ وكان أمر قدومه إلى الجزيرة انتشر بين جميع الأهالي وكثُرت التَّخميناتُ والتكهُّناتُ حوله ، وكان البعضُ ممن يُكنُّ البغضَ لسيرفال ، ويُريدُ الانتقام منه بدأ يَنْصبُ شراكه للإيقاع به والنَّيل منه .

في أحد الأيام أتى إلى عرندل شخصٌ يُكنُّ السَّخيمةَ لسيرفال وهمس له

ببعض الكلمات ، فاحمرَّتْ عيناه ، وانتفخ ودجاه ، وبدأ جسمه يرْتَعش ، وقال بصوتٍ متهدِّجٍ : الويلُ لهذا الدَّخيل والثُّبُور ! لأُنْزلنَّ به نقمتي ! وأُذيقنَّه شدَّة بطشي ! ولن يُغادرَ هذه الأرضَ حيَّاً !

لقد باتتْ أيامه معدودة ، ولياليه محسوبة ، وإني أُعاهدكَ ألا يَبرحَ هذه الجزيرة حيَّاً ، فاكتُمْ أمري ولكَ عهدي وميثاقي أن أُزوِّجكَ برفنور .

ثم صمت قليلاً ونظر إلى نار المَوقدِ المُضْطرمة وقال : لم يَدُرْ بخلدِ هذا الدَّخيلِ أنه أتى إلى حتفه ، وأن ثرى هذه الجزيرة سيُواري جسده .

ثم صمتَ قليلاً وقطَّبَ جبينه وقال : لا ، لا ، لن أُلوِّثَ ثرى هذه الجزيرة بجسده بل سأُلقيْهِ في البحر وليذهب إلى الجحيم .

امتلأ قلبُ شيراشور بالسُّرورِ فقد حقَّقَ الهدفَ من المكيدة وهو إبعاد هاردل وزواجه من برفنور وحدَّدا موعد اغتياله بعد أسبوع من الآن على أن يدعو شيراشور أهل الجزيرة لمأدبة ويتخلف عرندل عن حضورها ، ولم يَدُرْ بخلد كليهما أن هناكَ أذناً تُنْصتُ لما يُخطِّطَان له ويُدبِّرانه وما يَحيْكانه من مَكيدةٍ ضدَّ هاردل .

كان هاردلُ يَتجوَّلُ في أنحاء الجزيرة آمناً مُطمئناً لا يَعرفُ ما يُثارُ حوله من أحاديثَ ، ولا ما يُحاكُ له من غدرٍ وخَتْلٍ ، وبينما كان يَتجوَّل بعيداً عن النهر لم يَفْجأْه إلا فتاة سمراء جميلة التقاسيم تقف أمامه وتُخبره أنها برفنور ابنة عرندل ، وحدَّثته بما عزم أبوها عليه ، ودلَّتْه على كهفٍ مهجورٍ ، وطلبتْ منه أن يرتاده في بعض الليالي حتى يُعْهَدَ عنه هذا ، وفي الليلةِ المحدَّدَةِ يَهرب ، فارتابَ من حديثها فقالتْ له : إن لم تُصدِّقْني فامكثْ في الكوخ وسترى أن شيراشور سيُقيمُ مأدبةً ويدعو إليها رجالَ الجزيرةِ عداكَ أنت .

فأجابها هاردل قائلاً : كيف سيغتالني أبوكِ وهو سيُدعى للمأدبة ؟

فأجابته برفنور قائلة : سيتذرَّع بالمرض كي لا يحضر .

قال هاردل : لن يَجْرؤَ أبوكِ على اغتيالي وستتَّجه أصابعُ الاتِّهام إليه .

قالتْ : سيَدَّعي المرض ، وقد أخبرتكَ بما أعرفه ، وبقي اتِّخاذُ القرار عليك .

ثم ذهبتْ تاركةً هاردل غارقاً في أفكاره .

عاد هاردل إلى الكوخ بخطى مُتثَاقلة وبدأ يَذهَبُ في وَضَحِ النَّهار إلى الكهف على مرأى من الجميع حتى اعتادوا على هذا الأمر الغريب منه ، وفي أحد الأيام وبينما كان يَتفقَّدُ الكهف رأى في نهاية أحد التجاويف صندوقاً صغيراً فأخذه وفتحه فوجده مليئاً باللآلئ والجواهر فأعاده إلى مكانه واستمرَّ على هذا الوضع عدة أيامٍ ، وفي الموعد المحدَّدِ انْسلَّ عرندلُ في الغسق ليُنفِّذَ ما عزم عليه ، واتجه إلى كوخ سيرفال فلم يَجدْ به أحداً ، فذهب إلى الكهف الذي يُقيمُ فيه هاردل وعندما وصل إليه رأى النار مُضْرَمةً فَكزَّ أسنانه وقال : تبَّاً وسُحقاً لهذا القميء المأفون ، ألم يَغْفُ بعد ولكني سأغتاله الليلة وسأنتظر فالليل ما زال في أوَّله .

أيَحومُ حول الحمى ، ويَلِجُ العَرينَ ويَمْضي سالماً ؟ لا ، لا ، لا ، لأوردنَّه حِيَاضَ الرَّدى !

ثم ارتسمتْ على مُحيَّاه ابتسامةٌ ساخرةٌ وقال وهو يَضْغطُ بيده على الخنجر : لا ضَيْرَ من هذا فليتأخَّر قليلاً بنومه ليَهْنأ بالدنيا ساعة أخرى ، فلم يَبْقَ له غيرها ، وبعدها سيَرْقدُ في قاع البحر ويغفو إلى الأبد .

طال انتظارُ عرندل وهو يَقْطعُ الدَّربَ قريباً من الكهف جيئةً وذهاباً ، وعندما أَوشَكَ الفجْرُ على الانبلاج ، وقد أخذ السَّهَرُ منه مأخذه وخَشيَ من ظُهور النُّور ، وافْتضَاح أمره إن ظلَّ في مكانه ، عزم على مباغتة هاردل ، فبدأ يَمْشي بخفَّةٍ وحذر ، وعندما وصل الكهف وولجه

وخنجره مُشْهرٌ لم يَجِدْ به أحداً ، فبحث في نواحيه فلم يَرَ هاردل فصرخ من الغيظ ، وعاد يَجُرُّ أذيالَ الخيبةِ والفشل .

أما هاردل فكان في تلك الساعة عند ابنة عرندل وبيده صندوقٌ خشبيٌّ وهو يقول لها : هاكِ هذه الهدية تعبيراً عن شكري وامتناني لكِ على إنقاذي من بَرَاثنَ ما حِيْكَ ضدِّي من غدرٍ وخَتْلٍ وغِيْلَة .

فترد عليه قائلة : لم أفعلْ إلا ما يُمليه علي ضميري من إحقاقٍ للحقِّ وإزهاقٍ للباطل .

وبعد عدة محاولاتٍ منه قَبلتْ الهدية وأخْفَتْها في مكانٍ تَحَارُ الأنظار عن إيجاد مكانه ، وتَضِلُّ الألباب عن الاهتداء إليه ، وعندما خرج من عندها وقف على الباب وقال لها : أشكركِ من كلِّ قلبي على كل ما قدَّمْته لي من خدمة ، ولعلِّي في مُقْتبلِ الأيام أستطيعُ ردَّ الجزاء لكِ وسَدادَ الدَّين الذي طوَّقْتني به .

ثم خرج ولفَّه الليلُ بردائه ، وبعد بُزوغ الفجر أتى عرندلُ فوجد ابنته بادٍ عليها الارتباكُ والإرهاقُ فساوره الشكُّ في أمرها وقال لها : لِمَ لم تُخلدي إلى النوم ؟

لَمْ تُجبْه فأعاد السؤال ولكنها لاذتْ بالصَّمتِ ، وتَجلْبَبَتْ به فاغتاظ وقال : إن صدَق حدْسي ، ولم يَخبْ ظنِّي ، فقد آويت البارحة من آنَسَ وحدتكِ ، وبدَّدَ وحْشَتَكِ .

ردتْ عليه قائلة : على رسلك يا أبي لا يشطحْ بكَ الخيال بعيداً فما تراه من التَّعبِ البادي أثره علي إنما هو من خشيتي عليك ، وخوفي من عدم نجاح ما عزمتَ عليه .

لم يَنْجَلِ الشكُّ المرتسمُ على مُحيَّاه فقالتْ له : أعلم يا أبي ما يَجُولُ بخاطرك ولكن هذه الحقيقة ، فإن شئت ، وإن شئت .

ردَّ عليها قائلاً : ستَكْشفُ لي الأيامُ ما تُخبّئينه وفي تلك الساعة سترين ما أنا فاعله .

ثم خرج غاضباً ، وفي جانبٍ آخر من الجزيرة كان هاردل وسيرفال يتجاذبان أطراف الحديث والأول يقول للآخر : أشكركُ أيها السيّدُ الكريمُ على ما فعلته وبذلته لي ، ولا أعلم كيف أرد جميلك الذي طوقتني به .

قال سيرفال : إني أخطو فوق أعتاب الخمسين ولم يبْقَ لي الكثير لأعيشه ، فالضَّعف يَدبُّ في أعضائي دبيب النَّمْلِ فوق الصَّفا ، وما يَفوقُ الضَّعف الذي أُكابده هو ابنتي سيدرا التي لن يكون لها بعدي من يعولها ، ويحوطها بعطفه وحنانه .

ثم نظر إلى هاردل ليرى وقع آثار كلماته عليه ، ولما رآه مطرقاً أكمل حديثه قائلاً : وإني أسألكَ يا بني أن تَقْبلَ الزواج من ابنتي سيدرا وبهذا تُنْقذُ حياتي مرتين .

ثم صمتَ قليلاً ثم قال : قد تَحولُ الحوائلُ دون نيل المنى ، فارفقْ بنفسكِ وتعقَّلْ ، وامكثْ هنا ، وعشْ آمناً مطمئناً ، فهذا خير سِيقَ إليكَ فلا ترفضه وتأباه .

رفع هاردل رأسه ونظر إلى جهة الغرب ثم إلى جهة الجنوب وقال : أتعلم لم أنا حيٌّ إلى هذه الساعة ؟

ثم أكمل ولم ينتظر الإجابة : لأني أتنفَّسُ النَّسيمَ الذي يَهُبُّ مُضمَّخاً بعبير ريَّاها من جهة مسكنها ، فهناك (وأشار إلى جهة الغرب ثم إلى جهة الجنوب) قَسَمْتُ قلبي نصفين ، ولم يَعُدْ لدي إلا قلباً يَنبضُ بلا أحاسيس ومشاعر ، فاعذرني أيها الشيخ لعدم قدرتي على تنفيذ ما طلبته مني .

لما رأى سيرفال رفض هاردل البات لزم الصمت وقال في نفسه : إنك

غرٌّ لم تعْجُمْ عُودكَ التَّجْربةُ ، وسترْضخُ في النهاية لمطلبي ، وستتزوج ابنتي ، وسيُشْرقُ الحُب في قلبكَ كشروق هذه الشمس التي خيوطها الذهبية تضيء الدنيا .

أولم تعلم أن قُرْبَ الوِسَادِ ، وطُولَ السَّوادِ ، كفيلان بإيجاد المودة ، وأنَّ شَطَّ الدِّيارِ ، وتَعذُّرَ المزارِ ، يُخفِّفَان الحُبَّ ويُضْعفانه (ولم يعلم أنها تنطبقُ على أناسٍ دون أناسٍ ، وأنَّ هاردل لم يَبْقَ له غير سويعاتٍ قليلةٍ ثم يُودِّع الجزيرة إلى غير رجعة) .

ثم مضى دون أن يَنْبسَ بِبِنْتِ شَفَة ، وقُبَيلَ وصوله للكوخ بعدةِ أمتارٍ انْحرفَ شرقاً إلى جهة الشاطئ المهجور ، وركب قاربه الذي أمضى في إعداده طيلة الأيام التي قضاها في رُبُوع الجزيرة ، ثم أبحر في غفلةٍ من الرقيب مُيمِّماً وجهه شطر ما تُشيرُ إليه البوصلة وكله أملٌ بتحقيق ما يصبو إليه .

❖❖❖❖❖❖❖

الشـك

وصل هاردل إلى فرنسا بعد لأيٍ ومشقَّةٍ ، فبدأ العملَ نادلاً في أحد المطاعم ، وما زال الحال به هكذا مُثابراً لا يَني ولا يَتكاسل حتى حاز على ثقة وإعجاب المدير ، وفي أحد الأيام تشاجر مع أحد الزبائن بسبب خطأٍ في الطَّلب فطُردَ جَرَّاء هذا الموقف لأن المديرَ يَسْعَى لنَيْلِ رضا الزبائن بشتَّى الوسائل .

لم يَفُتْ ذلك في عضده فذهب إلى صديقٍ له تَعرَّفَ عليه في المطعم لكثرة ارتياده له وحدَّثه برغبته في أن يُشاركه في متجر لا سيَّما وأن لديه خبرةً في هذا المجال ، فوافق وأمدَّه بالمال ، فافْتَتَحَ مَتْجراً نال رضا الزبائن ، فتهافتوا عليه من كلِّ حدبٍ وصَوبٍ ، فافْتَتَحَ فرعاً ثانياً وثالثاً .

كانتْ تجارته تنمو ، وأرباحه تزيد وحنينه إلى والديه ونيرمال ودريال يربو ، وكأنَّ إزاءَ كل درهمٍ يكسبه ويدخل إلى خزينته دينار حنينٍ يَلجُ إلى قلبه ولا يبرحه .

أصبح هاردل من أهل اليُسْر والثَّراء فقرَّر بناء قصرٍ له ، فشاده قصراً أفيح تُحيطُ به حديقةٌ غنَّاء ، وأثثه أثاثاً فاخراً ، وجلب الخدم وأغْدَقَ عليهم العطاء ، فأخلصوا له وتفانوا في خدمته وخدمة ضيوفه الذين يأتون لحفلاته التي يقيمها كلَّ أسبوعٍ مرةً وفي أحايين قليلةٍ مرتين .

كان من عادة هاردل في الصباح أن يمشي تسعَ مائةِ خطوةٍ ومثلها في الإياب ، ثم يُحَيِّي البُستاني المنهمكَ بسَقْي الزهور ، وتَقليمِ أغصان الأشجار الذي يَرُدُّ التَّحيَّة وعلى مُحَيَّاه ابتسامة ، ثم يَدْلُف إلى الرُّدهة ويُحَيِّي من يجد من الخدم ، ثم يصعد إلى غرفته حيث يجد الإفطار معدَّاً ، فإذا انتهى طلب من أحد الخدم أن يَطْلبَ من السائس إعداد العربة للذهاب إلى العمل ، وفي منتصف الظهيرة يعود ليتناول الغداء ، ثم يأخذ قيلولة إلى الساعة الرابعة ، ثم ينهض ويذهب إلى الحديقة ويَخْتَسي

الشاي تحت الشجرة ، وفي إحدى المرات بينما كان يَحْتَسي الشاي وقفتْ أمامه امرأةٌ نَحَتَ الزمنُ على وجهها المتغضِّن الذي لم يَخْلُ من مسحةِ جمالٍ قصَّة البُؤْسِ والألمِ اللذين كابدتهما ، فرفع رأسه وشاهدها تقف أمامه فطلب منها أن تجلس على الكرسي وبعد جلوسها قال لها : ما شأنكِ ؟ وما الذي أتى بكِ إلى هنا ؟

ردتْ عليه قائلة : إني يا سيدي أبحث عن عملٍ وقد طردني سيِّدي ولا مأوى لدي ، وأثناء تَجَوُّلي هنا وهناك رأيتُ هذا القصر فأممته وأرجو ألا يَخيْبَ أملي ، ولا يَوْصَد في وجهي باب الأمل الذي تَراءى لي .

ابتسم وقال لها : أبوابُ القصرِ لا تؤصد في وجه مُؤَمِّلٍ ، بل هي مُشْرَعة لكلِّ سائل .

ثم تذكر الموقف عندما كان نادلاً في المطعم وقد انسكب القليلُ من العصير على الصينية فقرَّعهُ تقريعاً شديداً ، وأتَبَهُ على خطئه الذي لم يقصده ، فابتسم وقال : إن هؤلاء الذين تعْمَلُ عندهم قد اتَّخذونا خَولاً ، ويروننا أتفه من بعوضة ، ولم يعلموا أنه لا فرق بيننا في التَّكوين أبداً .

ثم التَفَتَ إليها وسألها عن اسمها فأخبرته أنها تُدْعى لورا فضمَّها إلى الخدم ، وأظهر لها من العَطْفِ والاهتمام ما أغاظ باقي الخدم عليها ، وأضرم نار الغيرة في قلوبهم ، فاحتقروها ، وازدروها ، ولقَّبُوها بالدَّخيلة ، وبالحرباء ولكنها لم تَحْفَلْ بهذا كله ما دامتْ نالتْ ثقة سيدها .

كان السيِّدُ في بعض الأحيان يَطْلُبُ من أحد الخدم أن يَطْلُبَ من لورا أن تأتي إليه في مكتبه ، أو أن تُحضرَ له الشَّاي ، وفي بعض الأحيان يدعوها إلى تنَاولِ الشَّاي معه تحت الشجرة ، وهذا أغاظ الخدم جدَّاً فبدؤوا يَحيْكُون لها الدَّسَائسَ والمؤامرات للنَّيلْ منها ، ولجعل السيِّد يَطرُدها ، وكان أشدهم عليها ريمالوز كبيرة الخدم التي تتَلمَّظُ تلَمُّظَ

الأساود الظِّمَاء من الغَيْظِ والحَنَقِ عليها ، وترى أنها تَمكَّنتْ من قلب السيِّد واستحوذتْ عليه ، فبدأتْ تَتَربَّصُ بها ، وتتَحيَّنُ الفُرَصَ لتُوقع بها ، وفي إحدى المرات استيْقظتْ على صوت وقع أقدامٍ تُسرعُ مرةً ، وتتريَّثُ أخرى ، وتَقفُ ثالثةً ، ففتحت الباب واسْتَرَقَت النظر فرأتْ لورا تتَّجه إلى الأسفل ، فتبعتها خلسةً دون أن تَشْعُرَ بها ، ولم يَفْجأْها إلا وهي تَفتح باب مكتب السيِّد وتَدْلُف إلى الداخل ، فأسرعت حتى وصلتْ إلى الباب وبدأتْ تَسْتَرِقُ النَّظرَ من الفتحة الصغيرة ، فرأتْ لورا تفْتح خزانة السيِّد فكتمتْ شهقة كادتْ تَفرُّ من بين شفتيها ، ثم عادتْ مسرعةً إلى غرفتها وقلبها يَخْفقُ بشدَّةٍ ، ثم استلقتْ على السَّرير ، ثم ابتسمتْ وقالتْ : لم يَذْهَبْ صبري سدى وها هو الفرجُ أتى أخيراً ، وستَقَرُّ عيني ، ويَسْعَدُ قلبي ، عندما أرى دموع الدَّخيلةِ تَنْهَمرُ عند طردها .

لحظة ، كيف حصَلَت الدَّخيلةُ على مفتاح الخزنة ؟

ثم انغمستْ في بحر أفكارها وشرَّقتْ وغرَّبتْ ، ربما أنها سرقته ؟ وربما أنها ... ؟

وفي نهاية المطاف قالتْ : مهما يكن ما حدث وعلاقتها بالسيِّد فإنها خانتْ ثقته وسيطردها ، وقد أصبح مصيرها بين يدي فلأهْتَبِل هذه الفرصة .

ثم هجعتْ وهي تُفكِّرُ بالسُّوء الذي سَيَحيْقُ بالدَّخيلةِ عندما تُخبرُه بالأمر .

في صباح اليوم التالي ذهبتْ ريمالوز إلى غرفة السيِّدِ وفي الرُّدهة رأتْ لورا فقالتْ لها : أراكِ اليومَ سعيدةً على غير العادة ؟

لم تُبالِ بنبرة التَّعالي في هذا السُّؤال وأجابتْ قائلة : لقد آن لهذا القلب يا كبيرةَ الخَدَمِ أن تَسْكُنَ بلابله .

ردتْ ريمالوز قائلة : أسْكَنَهُ الربُّ إلى الأبد فما هو إلا حرباءُ يَتلوَّنُ حسب الحاجة .

لم تُجِبْ على فظاظتها بل انْصرفتْ إلى عملها وأكملتْ ريمالوز سيرها ، ولما وصلتْ إلى غرفة السيِّدِ طَرَقَتِ الباب وولجتْ بعدما سمعته يأذن لها بالدُّخول ووقفتْ أمامه وقالتْ : سيدي لقد حصَلَ أمرٌ رهيبٌ يجب إطلاعكَ عليه لترى رأْيَكَ فيه ، فأنتَ ربُّ نعمتي ولا يُمْكنُني إخفاء أمرٍ فيه نُكرانٌ لجميلك ، وجحودٌ لمعروفك ممن آويته من التَّشرُّدِ وعطفتَ عليه .

ثم حدَّثتْه بما رأتْ وما كان من لورا وكيف دلفتْ إلى داخل مكتبه وفتحتْ خزانته الخاصة وكان وجه هاردل يَتمعَّرُ مع كلِّ كلمةٍ تقولها كبيرةُ الخدمِ وعندما انتهتْ من حديثها ووشايتها قال لها : ليُفْرخ روعكِ ، فإن كان هناكَ شيءٌ مفقودٌ فلا مكان لخائنٍ في قصري ، وإني لأَشْكُرُ صدقكِ وإخلاصكِ إذْ لم تُخْفي مثل هذا الأمر عني .

استدارتْ لتخرج فطلبَ منها أن تدعو لورا إلى مكتبه ليتَّخذ الإجراء المناسب بحقها إن كانت مُذْنبة فخرجتْ وبعد قليلٍ أتتْ لورا فنظر إليها مليَّاً ثم قال : لا أعلم لماذا كلما نَظرتُ إليها راودني هذا الشُّعورُ الغريب .

ثم صمتَ قليلاً ثم قال : يجب علي طرد هذه الأفكار وألا أتهَاونَ معها أبداً وإلا تَجَرَّأَ علي باقي الخدم .

نظر إليها وقد قطَّبَ جبينه وقال بصوتٍ حاول أن يَجْعَلَهُ غاضباً : لقد أخبرتني ريمالوز أنكِ اقْتحمتِ مكتبي ، وعبثْتِ بمحتويات الخزانة ، فما قولكِ ؟

أجابته قائلة : لقد كنتَ سيدي من قبل هذا فكيف لي أن أرْتَكبَ مثل

هذا الجُرْمِ بحقِ من عَطَفَ علي وأشْفَقَ وآواني .

أجابها قائلاً : إنَّ مثلَ هذا القولِ لا يَنْفي عنكِ التُّهمة ، ولا يُزيْحُ الشُّبْهَةَ ، فأخبريني بالصِّدق .

أجابته قائلة : أتُقَرِّعُني على خطأٍ لم أرْتَكِبْهُ ؟ وذنْبٍ لم أقْتَرِفْهُ ؟ بإمكانكَ يا سيِّدي أن تَتَأكَّدَ من محتويات خزانتكَ وبعدها عاقبني بما تشاء .

وجد الحقَّ فيما قالتْ فذهبَ إلى الخزانة ففتحها وتَفقَّدَ محتوياتها فلم يَجدْها نقَصَتْ شيئاً ، فعلم أنها مظلومة ، ومفترى عليها ، فاعتذر إليها ، فانصرفتْ بعدما زادتْ ثقةُ السيِّدِ بها وأتبعها بصره وهو يقول : إن فيها الكثير من الشَّبَهِ بمارينا وهذا ما دعاني إلى العَطْفِ عليها .

في عصر ذلك اليوم دعا هاردل لورا لاحتساء الشَّاي معه وعندما بدآ ارتشافه سألها عن قصتها ، فأخبرته قائلة : لقد وُلِدْتُ هنا في فرنسا وترعرعْتُ في حضنها ولكن لا أحد يعلم ما يُخبِّؤه القدر لنا فقد مات والداي واضطررتُ للعمل في بيوت الأغنياء لإعالة نفسي حتى انتهى بي المطاف إلى قصرك .

سألها قائلاً : ألم تقُومي برحلةٍ على مَتْنِ سفينةٍ مع والديكِ ؟

أجابته قائلة : لا ، لم أَبْرَحْ فرنسا مُذْ رأتْ عيناي النُّور ، ولم أملأْ رئتيَّ من نسيمٍ غير نسيمها .

أنزل كوبَ الشَّاي ورفعَ رأسه إلى السَّماء وبدأ يَسْتعيدُ ذكرى عزيزةً على قلبه حينما كان مع مارينا في الجزيرة يلهوان عند الشاطئ ، أو عند الجدول ، ثم قال في سرِّه : لو كانتْ هذه مارينا لعرفتني من الوَشْمِ على صَفْحَةِ عنقي .

قطعتْ عليه حبل أفكاره بسؤالٍ مفاجئ أرْبَكَهُ قليلاً عندما قالتْ : لماذا لم تَتَزوَّجْ يا سيدي إلى هذا الوقت وأنتَ في هذا الثراء ؟

أجابها قائلاً : عندما يُحالُ بين القلب وما يهوى ...

في هذه اللحظة أتى إليه أحدُ الخدمِ وقال له : إن السَّيِّدَ ليفرل في الرُّدهة يَنتظرُ قدومك .

قال هاردل : اذهبْ وأدخله إلى مكتبي وسأَحْضُرُ فوراً ولا تنْسَ أن تُحْضرَ الشَّاي وبعض الكعك .

ثم نهض معتذراً وذهب إلى المكتب حيث السيد ليفرل بانتظاره تاركاً لورا غارقةً في بحر أفكارها .

مضتْ عدةُ أشهرٍ بعد هذا الحديث لم يُكدِّرْ صفو حياتهم مُكدِّرٌ ولكن هل تَستَمرُّ السَّعادةُ والأُنْسُ والصَّفَاءُ ؟

لا ، فلابد من أن يَتخلَّلها أيامُ شقاءٍ ، وأوقاتُ همٍّ ، وساعاتُ كدرٍ ، إذْ أُصيبتْ لورا بمرضٍ أنْحَلَ جسدها ، وألزمها الفراشَ ، ولم تُفِدِ العقاقيرُ في علاجها ، ولا الأدويةُ في شفائها ، وفي ساعة احتضارها كان السيدُ جاثياً بجانبها والألمُ يَعْتَصرُ قلبه فقالتْ بصوتٍ مخنوقٍ مُتقطِّعٍ : جزيرةٌ ، خاتمٌ ، سفينةٌ ، شجرةٌ ، ثم أشارتْ إليه ، ثم أشارتْ إلى قلبها ، ثم لفظتْ أنفاسها بين يديه ويدها على قلبها ، وابتسامة على شفتيها .

أَغْمضَ عينيها ، وغطاها بملاءة ، ثم أسبل عينيه فبكى إلى ما شاء الله أن يبكي ، وطاف بخياله بين أطلال الذكرى في رُبُوعِ الجزيرة عندما كان فتى طريَّ العودِ ، غضَّ الإهابِ ، يَجولُ في أنحائها مع صديقه العزيز دريال ، وعندما يأتي إلى نيرمال في الحقل ، وعندما يذهبان في بعض الأحايين إلى الشاطئ ، وعندما كان مع مارينا يستكشفان الجزيرة وأحاديثهما عند الجدول .

أفاقَ من شُروده ونظر إلى الجسدِ الهامدِ بجانبه ثم قال : أهكذا الحياة أيامٌ معدودةٌ ، وأنفاسٌ محدودةٌ ، ثم يُصبحُ الإنسانُ جثةً هامدةً لا يَسْمعُ

مُنادياً ، ولا يُجيبُ سائلاً ؟

ألم يَكُنْ هذا الجسدُ قبلَ ساعةٍ يَتنفَّسُ ، ويَنظرُ ، ويَتحرَّكُ ؟

ما الذي أخْمَدَ أنفاسه ،وعطَّلَ جوارحه ، وقيَّدَ قواه ؟

أإلى هنا انتهتْ به السُّبُلُ والفجاجُ ؟ أهذه نهاية الطَّريق الذي سلكناه مُذْ خرجنا من بطون أمهاتنا ؟ أهذا ما كنا نسعى إليه مُنْذُ البداية ؟

اقْطَعِ الدُّروبَ ، واسْلُكِ الفجاجَ ، واخْرْ عُبابَ البحار ، واعْبُرِ الأنهارَ ، واجْتزِ الوديان ، فما هي إلا رحلة تجتازها ، وأماكن ترتادها ، ومحطات تنزلها ، إلى أن تصل إلى نهاية الرحلة التي ابتدأتْ من خُرُوجكَ من بطن أُمِّكَ إلى مُفَارقة روحكَ جسدك .

دُفنتْ لورا ، ولكنها بَعثتْ في نفس هاردل تساؤلاتٍ كثيرةٍ لم يُفْلحْ في طردها من رأسه ، ولم يَجدْ لها حلاً ، فعزم على أمرٍ لم يَجدْ له منه مَناصاً .

❖❖❖❖❖❖❖

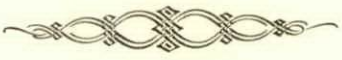

الحقيقة

كان الحنينُ يَسْتبدُّ بقلب هاردل إلى والديه اللذين خلَّفهما في الجزيرة مُذْ ما يُقاربُ العقدين من الزمان ، وإلى صديقه العزيز دريال ، وإلى الحبيبة نيرمال ، حتى رَبَا الحنينُ ولم يَعُدْ يَستطيعُ له دفعاً ، وفي إحدى الليالي وهو مُستلْقٍ على سريره عزم على الرَّحيل إلى جزيرته بعد عدة أيام وهجع وهو يُفكِّرُ بأهله وأترابه ونيرمال .

أعدَّ عدة السَّفر وأعدَّ سفينةً وأخذ معه عدة رجال ليُعينوهُ على الإبحار ، وأوصى كبيرة الخدم بالاهتمام بالقصر مدة غيابه ، ثم أبحر عدة أيام في جوٍّ هادئ ، ولما تراءتْ له الجزيرة ظنَّ أنه سَيَجدُ أباه يَصْطادُ السَّمكَ مع آرثر ، وأن صديقه العزيز دريال على الشاطئ يَنْتظرُ أوبته ، ويُفكِّر بردة فعل نيرمال عندما ترى أمارات الثَّراء عليه .

كانت الأفكارُ تَزدحمُ برأسه والتَّخْمينَاتُ تُهيمنُ على عقله من ردود الأفعال عندما يرونه حتى وصل فلم ير أحداً فارتاب ، وعندما رَسَتِ السَّفينةُ نزل قبل الجميع من القلق الذي اسْتبدَّ به ، ثم نزل بعده بعض الرجال ، فاتَّجه بسرعة إلى الكوخ ويا لهول ما رأى !

لقد رأى الكوخَ محترقاً ، وبعض الأواني مُبعثرةً ، والحقلَ مهجوراً لا أثر فيه لحياة إنسان ، فذُعرَ وذهب إلى كوخ دريال وطاف به فلم يَجدْ إلا مَناظرَ تُجدِّدُ شجنه وتبْعثُ أساه ، فيَمَّمَ خطاه إلى كوخ نيرمال فلم يَجدْ إلا بقايا خشبٍ كانتْ شاهدةً على ما حدث ، ولكنَّها جمادٌ لا يَنْطقُ فكيف لها أن تُخْبره وتُحدِّثه بما كان من الخطْبِ الجسيم الذي حلَّ بالجزيرة وساكنيها ، وعلى يمينه شاهَدَ نصْلَ خنجرٍ مكسورٍ على إحدى المناضد وسنارة مُحطَّمة ، فطاف به قليلاً ثم وقف وقال يناجيه والدمع ينهمر :

أيها الرُّبع المحيل ، الذي أقفر من سُكَّانه وأحبابه وسُمَّاره وروَّاده ، أَبَقيَتْ أطلالكَ لتُؤَجِّجَ شوقي ، وتُضْرمَ حنيني إلى التي وُشِمَ اسمها بضاحي أديم

صدري ، وَوُسِمَ حُبُّها بسويداء قلبي ؟

أيها الطَّلَلُ البالي ، لن يَبْرَحَ حُبُّكَ قلبي ، وستَظَلُّ ذكرى لا تَمَّحي ولا تُزولُ ، حتى وإن أصبحتَ قاعاً صفصفاً لا يُرى فيك عِوَجٌ ولا أَمْتٌ لأنَّكَ ضممتَ بين جَوانحكَ فيما مضى فتاةً ما أضلَّت الخضراءُ ، وأقلَّت الغبراءُ من تُضَاهيها حُسْناً وبَهَاءً .

لم يَحْتملْ هذه المناظرَ الشَّجيَّةَ ، فاتَّجه إلى الشاطئ وبدأ يَسيرُ بتُؤَدةٍ مُطْرقَ الرأسِ ويديه بجيبي بنطاله شَاردَ الذِّهْنِ يُفكِّرُ بما حدث ، ثم عاد أدراجه فوجد الجميع مجتمعين يتحدَّثون ويطهون الطعام ، فجلس معهم بجسمه ، أما عقله فكان بين حنينٍ لما مضى ، وشجى وأسى مما رأى ، ثُمَّ أفاق من شُروده على صوت أحدهم وهو يقول له : هاك صحن الطعام يا سيد هاردل .

أخذه وبدأ يَأكلُ ببطء وعندما انتهى قال : علينا أيها الرجال أن نُخْلدَ للمبيت باكراً لأننا سَنُبْحرُ في الغد مع الفجر .

اضْطُرَّ لاتِّخاذ هذا القرار لأنه لم يَسْتَطعْ تَحَمُّلَ المشهد الذي رآه ، فما أقسى وأنكى من أن تَبْنيَ صروحاً من الأملِ والسعادةِ ثم تعْصفَ بها ريحُ اليأسِ والشَّجن .

تأتي طالباً الماءَ الزُّلالَ ، والظلَّ الوارفَ ، فلا تجد إلا السَّرابَ الخادعَ ، والهجيرَ المرمض .

تأتي طالباً المأوى ، وقُرْبَ الأحبابِ ، ولَمَّ الشَّمْلِ الذي طالَ أَمَدُ انقطاعه ، فلا تجد إلا التَّشَرُّد ، والنأي ، والشَّتات .

تأتي باحثاً عن الدفء ، والأمل ، والأمان فلا تجد إلا الصَّقيع ، واليأس ، والخوف .

في صباح اليوم التالي أبحروا ولم يكن هاردل خلال هذا يُخَالطُ الرِّجال أو

يُحَدِّثُهم ، بل اعتزل الجميع في غرفته فلا يبرحها إلا نادراً ، وعزف عن الأكل والشرب ، وعندما وصل إلى فرنسا سقط طريح الفراش لا يقوى على الحركة ، فاهتمَّ به الخدمُ ، وأحضروا له الأطباء ، وبذلوا في ذلك جهداً حتى أَبَلَّ من مرضه ، وشُفي من سقمه ، ولكن الشُّرود لم يبرحه فتراه كثيراً ساهياً ، شاردَ الذِّهنِ ، لا يَشْعُرُ بمن حوله ، وأَهْملَ الحفلات فلم يَعُدْ يدعو إليها أحداً ، وهجر مجلسه تحت الشجرة لاحتساء الشاي .

ظلَّ هاردل على هذه الحال مدة ، وفي إحدى المرات أتى أحدُ الخَدَمِ فطَرَقَ باب الغرفة ثم دلف إلى الداخل بعدما سمع الإذْنَ له بالدُّخول وأخبره أن السيِّدَ ليفرل ينتظره في الرُّدهة ثم انصرفَ الخادمُ .

نزل هاردل واسْتَقْبلَ ضيفه في مكتبه ، فأنَّبه على استسلامه لأحزانه وأشجانه ، ونبَّهه إلى أنه يَجبُ عليه الصُّمود ، وألا يُظْهرَ جزعاً ولا ضَعْفاً وخَوراً ، وما زال به حتى عَزَمَ على إقامة حَفْلةٍ في هذا اليوم ، فاستأذن ليفرل على أن يَحْضُرَ في الساعة الرابعة حيث موعد الحفلة .

بعد خروج السَّيِّد ليفرل رنَّ هاردلُ الجرس ، فأتى إليه أحد الخدم وقال : هل طلبتني يا سيدي ؟

التفتَ هاردلُ إليه فرآه مُنْحَنياً فقال له : ارفعْ رأْسَكَ فنحنُ سَواسيَةٌ لا فرْقَ بيننا وإنما نحنُ من خلق هذه الفوارق والمراتب ، فهذا عزيزٌ وذاك وضيعٌ ، وهذا سيِّدٌ وذاك خادمٌ ، وهذا ملكٌ وذاك سُوقةٌ ، وهذا نبيلٌ وذاك عامي . نحن جميعاً نَأكُلُ الطَّعامَ ، ونَشْربُ الشَّرَابَ ، ونَمشي في فجاجِ الأرض ، وتهْجعُ ، ونَسْقمُ ، وتتَجرَّعُ غُصَصَ الموتِ ، ونُدْفنُ في باطنِ الأرضِ ، فَبِمَ أتَميَّزُ عنكَ وأفوقك ؟

ربما أن الكثيرَ من المعدمين أكثر ذكاءً ، وأبْعد نظراً ، وأعلى خُلُقاً من الموسرين ، ولكنَّ المالَ من يَضَعُ هذا ويَرْفعُ ذاك ، ويُعزُّ من لا خَلاقَ له

ويَضَعُ من له خَلاق .

لم يَسْتطع الخادم أن يُخْفي الدَّهْشةَ المرْتَسمةَ على مُحيَّاه فقال بصوتٍ مُتقطِّعٍ : هل طلبتني يا سيدي ؟

قال له هاردل : طلبتُ منكَ أن ترْفعَ رأسك فارْفَعْهُ وحدثني .

رفعَ الخادمُ رأسه وقال : أوامرك سيدي ؟ أهناك طلبٌ مُحدَّدٌ أُنفذُه ؟ أم لك رغبةٌ أُوْصلها إلى أحد الخدم ؟

قال هاردل : سيأتي إلي في الساعة الرابعة بعض الضيوف فأعدوا كلَّ شيءٍ من طعامٍ وشرابٍ وحلوى .

قال الخادم : كما تَشَاءُ يا سيدي ، كلُّ شيءٍ سيكون جاهزاً في الوقت المحدَّد ، وسأُبْلغُ الطُّهاةَ بهذا الآن فاطمئن .

ثم انصرف والدهشة لم تُفارقْه ، فقال هاردل يُحدِّثُ نفسه: ما أعجب أمر هذا الخادم ! لقد اسْتَمْرأَ الخُنُوعَ واعتاد عليه من طُولِ ملازمته له .

في الساعة الرابعة حضر المدعوون إلى الحفلة ، وبدؤوا تناول الشاي والكعك وانهمكوا في الحديث وتبادل النَّوادر ، وفي هذه الأثناء أتى أحدُ الخدمِ وقدَّم لُفَافةً لهاردل وأخبره أنه وجدها في الشجرة التي في الحديقة ، فتغيَّرتْ سَحْنةُ وجهه ، وظهر عليه الوُجُومُ ، ثم نهض وطلب من ضيوفه إكمال الحفلة ، ثم اتجه إلى مكتبه وفضَّ اللُّفَافةَ فظهر له قرطان ورسالة ، ففضَّ الرسالة وقرأها وإذا فيها : إلى فتى جزيرة أرابودس العزيز هاردل : بعدما أبحرتُ من جزيرتكم أرهقَ الحنينُ قلبي وأرْمَضَهُ ، فطلبْتُ من أبي الإبحار فوافق بعد لأي واتجهنا إلى جزيرتكم وهناك لم نَجدْ إلا بقايا أكواخٍ مُهَدَّمة ، وعندما تجولنا فيها قليلاً وجدنا الفتاة المدعوة نيرمال في أحد الكهوف ، وعندما حاولنا أخذها معنا لفرنسا رفضتْ وأخبرتنا أنها لن تبْرحَ أرضاً وُلدَتْ فيها ، وتَرعْرعَتْ في حضنها ، ودَرَجَتْ فوق ترابها ، ووارى باطنها أجساد أهلها وأحبائها ، وعرفتْ فيها

من تيّمها وشغفها ، وعندما سألتها عما حلّ بالجزيرة أخبرتني قائلة : حدثتْ رجفةٌ عظيمةٌ مادتْ منها الأرض ، فتحطّمت الأشجارُ ، وتهدّمت الأكواخُ ، وهاجت الأمواجُ وماجتْ ، واكفهرَّ الجوُّ حتى خلتُ الليلَ حلّ من شدةِ السَّوادِ ، وزأرت السماءُ ، وأرختْ عزاليها حتى خلتُ السماءَ ستَنْطبقُ على الأرضِ ، فعلا الصراخ والبكاء ، وبلغت القلوب الحناجر من الرعب ، فأُغْمي علي وعندما أفقتُ من إغماءتي وجدتُ الأكواخَ مُتهدِّمةً ، والجثثَ مُتَناثرةً هنا وهناك ، ولم يَبْقَ على قيد الحياة من أهل الجزيرة أحدٌ غيري وعلى بعد أمتارٍ قليلةٍ عدة رجال من قبيلة النرفلون يتحدثون ويقهقهون و ...

ثم اعْتُقلَ لسانها فلم تَنْبسْ ببنت شفة ، وبعد عدة أيام استيقظتُ فلم أجدها وعندما ذهبتُ مع أبي للبحث عنها وجدناها جثةً هامدةً في الكهف الذي وجدناها به أول مرة ، فغسلناها ، ودفناها ، وعدتُ أدراجي مع أبي إلى فرنسا وتقلبتْ بي الأحوالُ فاضطررتُ للعمل في قصور الأغنياء لأُعيْلَ نفسي ، وعندما كسرْتُ بالخطأ أحد الأطباق الثَّمينة عند صاحب القصر طردني ، فهمتُ على وجهي وعندما رأيتُ قصرك أممته ، وعندما رأيتكَ تذكرتُ هاردل ، فهاج بقلبي ما سَكَنَ من الشَّوق ، واضطرمتْ نارُ الحنينِ التي لم تَخْمُدْ ، وأردتُ التَّأكُّدَ هل أنتَ هو أم لا ، فأخذتُ مفتاحَ خزانتكَ عندما رأيته على المنضدة ، واتجهتُ إلى مكتبك وفتحتُ الخزانة فرأيتُ الخاتم الذي أعطيتكَ إياه فلم يَبْقَ لدي شكٌّ ، وأيقَنْتُ أنكَ أنتَ هاردل ولقد صدقتْ ريمالوز فيما اتهمتني به ولم أُخبركَ ...

ولم يَسْتَطعْ أن يَقْرأَ أكثر من هذا لأن باقي الرسالة اختلط حبرها بدمع مارينا عندما كتبتها ولم يَعُدْ بالإمكان قراءتها ، فوَدَّ لو انشقَّت الأرض وابتلعته قبل أن يعلم بما حدث لأهله وأحبائه وأصدقائه ، إذْ لم يَعُدْ هناك أملٌ يَحْيَا من أجله ، ويُغذ الخطى نحوه .

نظر إلى الرسالة وكأنها سَهْمُ المنيَّةِ فُوِّقَ إليه ثم صرخ قائلاً : ويحي ! أكان يُظلُّني ومارينا سقفٌ واحدٌ طيلة هذه الأعوام ولم أعلم .

ثم تذكر الموقف عندما كانا يحتسيان الشاي تحت الشجرة وهو يسألها هل أبحرتْ مع والديها ، فنفتْ هذا وأخبرته أنها لم تُغَادرْ بلدها فرنسا ، فامْتَعضَ قليلاً بشأن كذبها ثم قال : أنَّى لها أن تعْلمَ بشأن الوَشْمِ وقد أتَتْ إلينا في شتاء قارص ، فكيف لم أَفْطَنْ إلى هذا الأمر في حينه ؟

بل ويحي ! كيف لم أَفْطَنْ عندما قالتْ وهي طريحةُ الفراشِ قبل الموت : مَرِّرْ يديكَ على وجهي كي تعُودَ له نضارته وبهاؤه ، وَضَعْ يدكَ على قلبي لِتَسْكُنَ بلابله ، فلا تبْخَلْ علي بهذا .

ليتها أخبرتني ألم تعلم أني أَذوبُ شوقاً إليها ، وأنَّ كلَّ ذرَّةٍ في جسدي تَحنُّ إليها ، ولم تَزْدَدْ أُتُنُ الشَّوق المضطرمة في قلبي إليها إلا التهاباً .

لماذا أخفتْ عني الأمْرَ ؟ وبأيِّ حُجَّةٍ وتحت أيِّ ذريعةٍ فعلتْ هذا ؟ هل كانتْ تظنُّ أنَّ الثَّراءَ أطغاني ففركتها أو نسيتها ؟

ها هي سُيوفُ الفراقِ تعْتَورُ قلبي ، وأُتُنُ الحنينِ تُحرقه ، فليتني كنتُ معهم فأصابني ما أصابهم ! فلا عيش يَطيبُ بعد فراق الأحباب .

لم يَبْرَحِ الشَّجنُ قلب هاردل مُذْ ذلك اليوم الذي قرأ فيه الرسالة ، وفي إحدى الليالي ذهب إلى قبر مارينا وأطال الوقوف أمامه ثم قال : ها قد وخَطَ الشَّيبُ رأسي وعارضي ولم يَزِدْ حُبُّكِ إلا اضطراماً ، وإني أُقسمُ يا مارينا أنكِ أَحَبُّ نَسْمةٍ إليَّ على وجه البسيطة بعد نيرمال ، وما زلتُ مشغوفاً بكُما مُتيَّماً وإن أبلى الثَّرى محَاسنكُما ، لأني أحببتُ فيكما قلباً وروحاً لا جسداً .

هاكِ يدي لم أنتِ صامتة ؟ بربكِ أعيدي إلي ذكرى تلك الأيام التي كُنَّا نَجولُ فيها ، ونَسْتكشفُ مَجَاهلَ الجزيرة ، ونعدو عند الجدول الذي تعاهدنا عنده على الوفاء ، ونقْبعُ على ضفته لتناول الطعام ؟

لقد تعاهدنا على الحُبِّ والوفاء طيلة العمر وإن نأتْ بنا الديارُ ، وشَطَّ المزارُ ، ولكن غالَكِ الرَّدى ، وتوسَّدْتِ الثَّرى ، وبقيْتُ بعدكِ تائهاً في دروب الحياة ، غُدُوّي مع الحنين ، ورواحي مع الزفرات والأنين .

ثم أَجَالَ ناظره فلم ير إلا الأضْرحة التي تملأ المكان فقال : ما هبَّتْ نسماتُ المساءِ ، وما غرَّدت الطُّيور ، وما اكتملَ البدرُ ، وما هطلَ الغيثُ ، إلا وتفجرتْ يَنابيعُ الشَّوقِ ، وسالتْ حِمَمُ الحنينِ إليكِ ، ولو اجْتَمعَ جَميعُ نساءِ الدنيا في مَيْعَةِ الصِّبا ، وأتيتِ أنتِ في سن الشَّيخوخة لانصرفتُ إليكِ غير آبهٍ بسواكِ .

ثم أخذ بعض ثرى القبر وضَمَّهُ إلى صدره وقال : لقد أبْحَرْتُ في بحر حبكِ طيلة عمري ، صارعتُ أمواج الحنين ، قطعتُ محيطات الصبابة ، اجتزتُ مَفَاوزَ النَّأي ، مُيَمِّماً نحو قصر الأمل ، وبستان اللقاء ، حتى شارفتُ على مرحلة الشَّيْخُوخة وحِيْلَ بيني وبين ما أصبو إليه ، فسيَّان فراق الحياة والموت ، فكلاهما يَحْصُدُ الأرواحَ ، ويُتْلفُ الأجسادَ ، ويُرْمضُ القلوبَ ، وإن كان لفراقِ الحياةِ بَصيْصُ أملٍ تُعَلِّلُ النَّفْسَ به باللقاء .

ثم صمتَ قليلاً ورفع رأسه إلى السماء وقال : أيها الفراقُ ، أيها السَّيفُ المصْلتُ على رُؤُوسِ العبادِ ، كم أَسَلْتَ من دمْعٍ ، وأشْجَيْتَ من قلبٍ ، وأسْقمْتَ من جسدٍ ، وأتْلَفْتَ من روحٍ ، يا مُقوِّضَ خيامِ السعادة ، وهادمَ قصورِ المنى والأحلام ، ما أشدَّ وطْأَتَكَ ، وأنْكَى طَعْنَتَك .

تَجُولُ بين الناس التي فرَّقْتَ شملها ، وتتَبَخْتَرُ بين القلوب التي أحرقتها وأنهكتها ، وأنتَ آمنٌ من أن تُصَابَ أو يُقَادَ منك .

الويل لكَ ! ألا رحمتَ الأعيُنَ الواكفةَ ، والقلوبَ الواجفةَ التي وُسِمَتْ بميْسَمكَ ، والأكبادَ المحترقةَ التي شكَّها سَهْمُكَ ، فتَكفَّ ، وتتَنكَّبَ ، وتنْشَمِرَ ، فعلى من أسْتَعْديكَ ؟ وأنتَ نَذيرُ الموتِ ، ورداءُ السَّقمِ ، وقَرينُ الشَّجنِ ،

وأغلالُ الجحيمِ ، وأصْفَادُ العذابِ ، وبَيْداءُ الضَّياعِ ، وصَعيْدُ الجَفَافِ ، وفَارسُ الوغى الذي لا يَرْحَمُ ولا يَعْطف .

انظرْ أي جَمْعٍ لم تُفَرِّقْه ، وأي بيتٍ لم تَلجْه ، وأي قلبٍ لم تُشْجه ، فبِمَ تُرْزأُ أيها الفراقُ لتَعْلمَ ما يُكابدُه من أَلْقَيْتَ عليه بكَلْكَلك ؟

قد آذيتني أيها الفراق ، وآلمتني ، وأشجيتني ، وأنهكتني ، ولكني ثابتٌ لا أتزعزعُ ، وصامدٌ لا أنحني ، وإن أخذتَ مني أمَّاً وأباً ، وحُلْتَ بيني وبين حبيبةٍ استحوذتْ على شغاف قلبي مُنْذُ صِغَري ، كنتُ أَتَمنَّى قربها والاقتران بها ، وأحباباً كانوا لي سلوة وسعادة ، فأنْهِكْ قلبي ، وأدْنِفْ جسدي ، وأحْرِقْ عروقي فلن أتَضَعْضَعَ لك ، ولن أَلِينَ وأسْتَكِيْنَ ، وإن فرَّقْتَ بين روحي وجسدي .

ثم صمتَ قليلاً وأطرق برأسه ثم نظر إلى القبر وقال : أَأُقَبِّلُ هذه الصخرةَ الصَّمَّاءَ التي لا تَفْقَهُ ولا تَعي والتي لا أخالها إلا قلبَ من يَعْذل المحبَّ ويلومه على الومق والحنين اللذين استعمرا سويداء قلبه ؟ فكيف لي بتقبيلها مع بغضي لتلك القلوب ، ولأن هذه الصخرةَ مَعْلَمٌ لفراقك ؟

أيها الحبُّ ، ألم تَرْأفْ بهذه المضغة في بقيَّةِ أيامها ، حتى إذا آن رحيلها رحلتْ آمنةً مُطْمئنَّةً ؟

انظرْ إليها وستُوْقنُ أنكَ جُرْتَ فيما فعَلْتَ ، وأنكَ ظَلَمْتَ وأوْرَدْتَ الحُتوفَ كثيراً ممن هم على شاكلتها ، فويحكَ أي عذرٍ سيَغْفرُ لك من القلوبِ المُنْهَكَةِ ويَقِيْكَ ملامها ! فجراحُ الجسد تلْتَئمُ مع الأيَّامِ ، أما جراحُ الهَجْرِ والفراقِ التي أنتَ سببها فلا تَنْدَملُ ، ولا تُفيدُ في علاجها عَقَاقيرُ الأطباء ومَبَاضعُ الآس .

ثُمَّ أَكَبَّ على القبر وجثا أمامه ودموعه تنْهمرُ وقال : لم أَعُدْ أَهْفو إلى كُنُوزِ الدُّنيا من ذَهَبٍ وفضَّةٍ وجَواهرَ ، فخذوا مني كل ما أملك وأعيدوا

إليَّ ما فقدْته من أحباب ، وأعيدوني إلى أرابودس مع نيرمال ومارينا مُعْدَماً لا أَمْلكُ إلا أَسْمالي ، فكل ذرَّةٍ وجارحةٍ من مَفْرقي إلى أخمصي تَحنُّ إليهما حنين الأرض الظَّمْأَى لواكف العَارضِ الهَطلِ ، صدَّعها ، وشرَّمَها ، طُولُ الصَّدى ، ونَأْيُ من تقلَّبُوا فوق ثَراها ، وعَدَوا بين جنباتها صغاراً ، وظَعَنوا عنها كباراً .

ثم رَفَعَ رأسه ودموعه تنْهمرُ وقال : كَمْ وددتُ لو كان عمري بيدي لأقسمه شطرين ! فشَطْرٌ أَعيْشُ به في مرابع تلك الجزيرة معكِ ومع نيرمال ومع أترابي ، وشَطْرٌ أَقْسمه بينكِ وبين نيرمال ، ولكن لا حيلة ، ولا قُدرة ، ففي الأعمّ الأغلب ، البينُ ، والنَّأيُ ، والهَجْرُ ، تَكْتنفُ الحُبَّ فيتَعَذَّرُ اللِّقاءُ والوصال .

ثم أطرق برأسه وقال : نعم ، هذا جزاء تلك الفعلة الشَّنْعاء التي فعلتها في تلك الجزيرة التي قَذَفَتْني الأمواجُ إليها ...

لا ، لقد رأيته هنا في فرنسا وقد ساعدته على إيجاد عملٍ له ، ونفحْته بعض المال عندما كان يَمُرُّ بضائقة ، وقد أنْقَذْته مرتين من بَراثن السجن عندما أثقَلَ الدَّيْنُ كاهله وطَلبَ دائنوه منه السَّداد أو السجن ، وقد أنْفَقْتُ الكثيرَ على الفقراء والمساكين ، ولعلَّ في هذا كفارةً لما جنته يداي فيما مضى من التقصير في حق أمي وأبي ودريال ونيرمال .

لقد اخْترتُ الطَّريقَ الشَّاق ، وسَعَيْتُ نحو حلمي المليء بالأشواك ، وكَابدتُ الصِّعَابَ ، حتى حَقَّقْتُ ما أصبو إليه ، وإني أُقرُّ في هذه اللحظة أني لم أكن مُصيباً ، وأن التَّوفيقَ جانبني ، والنَّجاحَ جانفني .

وبعد مدةٍ باع القصر وهجر بلاداً ظن أن فيها سعادته وإذا بها تَنْدها وتُبعده عن أهله وأحبائه ولم يُدْرَ إلى أين ذهب .

دخل السَّيِّدُ الجديد الذي اشترى القصر ومعه خادمته المخلصة وبدآ التجوُّلَ فيه وعندما دخلا إلى غرفة هاردل فيما مضى وجدا مكتوباً على لوحةٍ حديثةٍ

هذه الكلمات وممهورةٍ بالأسفل باسم هاردل : إننا نَدْأَبُ ونُجْهدُ أنفسنا ونُفْني سِنِيَّ العُمْرِ في السَّعي الحثيثِ خلف أمانينا وطموحاتنا ، وربَّما أن الحَتْفَ في ثنَايا ما نَطْمَحُ إليه ونؤَمِّلُه ، فلا تيْأسْ ، ولا تَشْجَ إذا حِيْلَ بينكَ وبين ما صَبَوْتَ إليه ، فلعل الخير في المنع والحرمان .

ثم أكملا تجوالهما في أرجاء القصر الفسيح ، وفي الصَّباحِ أَتَتْ عائلةُ السَّيِّد وأمضوا عدةَ أعوامٍ في هناء وسرور ، وفي صباح أحد الأيام من شهر يوليو من عام ١٨٥٥ م استأجر السَّيِّدُ منزلاً جميلاً يُطلُّ على بُحيرةٍ صغيرةٍ وذهب مع عائلته إليه ليقضوا فيه شهراً ، وعند وصولهم تفاجؤوا بوجود صاحب المنزل فسأله السَّيِّدُ عن سببِ وجوده فلم يَنْبسْ ببنت شفة بل أخذ بيده وانتحى به جانباً وقال له : لقد هجرتُ هذا المنزل مُذْ ما يَزيدُ على العام ونصف العام ونَسيتُ أن أُفْضيَ إليكَ بأمرٍ خطيرٍ ، ثم بدأ حديثه قائلاً : كان يأتي إلى هذا المكان شخصٌ رثُّ الثيابِ ، زَريُّ الهيئةِ ، نَحيلُ الجسمِ ، أشْعثُ الشَّعرِ ، أَجْلحُ مُقدّمةِ الرأسِ ، أَسْمرُ السحنةِ ، غائرُ العينين ، ناتئُ الوجنتين ، أَقْنى الأنفِ ، دقيقُ الشفتين ، فيَجلسُ الساعات قُرب البُحيرةِ ، وأحياناً يَقذفُ بالحجارة الصغيرة فيها ، وأحياناً يَنظرُ إليَّ نظراتٍ ملؤها الحيرة ، ورأيته بضع مراتٍ يَذرفُ دموعه ويَنشُجُ ، فإذا حان وقت الأصيل يَمضي إلى جهة الغرب ، وبعدها هَجَرْتُ المنزلَ ولا أَعْلمُ ماذا حدث له .

تَساءلَ السَّيِّدُ في عجبٍ : أين يُقيمُ ؟ وهل هنا سكنه أم ماذا ؟

أجابه قائلاً : لا ، لقد ظهر فجأةً من جهة الغرب .

شكر السَّيِّدُ صاحبَ المنزلِ ، ثم دَلَفَ إلى المنزل وأخذ البندقية وعبَّأها بالذَّخيرة تَحسُّباً لأيِّ طارئ .

مضتْ عدةُ أيامٍ دون حُدوث شيء ، وفي الصباح الباكر من أحد الأيام أخذ السَّيِّدُ بعض الزاد وذهب لاستكشاف المكان ، وأثناء تجواله بين الأشجار

رأى كوخاً تصفق بابه الرّياحُ فذهب إليه وولجه ولم ير أحداً ، فولجَ إلى الغُرفةِ الأولى فلم ير بها سوى منضدة ، وملعقة خَشبيَّة ، وصَحْفَة صغيرة فيها بقايا لحمٍ مُقَدَّدٍ ، فخرج وذهب إلى الغرفة الثانية فلم يَجدْ شيئاً ، فخرج خارج الكوخ فرأى غُرفةً صغيرةً مُلْحَقَةً به فدَلَفَ إليها وأجال بصره فيها فرأى بقايا شمعٍ محترقٍ ، ثم تراجع إلى الخلف وخرج خارج الغرفة من هول ما رأى ، فقد رأى هيكلاً عظميَّاً ثم تَمَالكَ نفسه ودَلَفَ مرةً أخرى ، وعندما اقترب من الهيكل رأى منضدةً فاتَّجَه إليها وفتح الدرج الأول فلم يَجدْ به شيئاً ، وعندما فتح الدرج الثاني وَجَدَ به كتاباً مُغَلَّفاً بغلافٍ من الجلد فتَصَفَّحَه فوجده مَكْتوباً بخطِّ يد ، فأخذه ووضعه في سُترةِ جيبه ، وعاد أدراجه إلى المنزل ، وتناول العشاء مع عائلته ، ثم أخلد للمبيت ، وفي الصَّباحِ أخبرهم بما حدث ، ثم أعطى السَّيِّدُ الخادمةَ الكتاب وأمرها بالتَّخلُّصِ منه ، فأخذته واتَّجَهَتْ إلى غرفتها وقرأته وعلمتْ أن الهيكل العظميَّ هو هاردل فبكتْ أشَدَّ بُكاء ، وطلبتْ من السيد أن يواروا الهيكل ضريحه ففعل ، ومذْ ذلك اليوم والأسى يَعيْثُ في قلبها ، وقد لاحَظَ السَّيِّدُ شُرودها ، وشجنها ، وعُزُوفها عن الطَّعامِ ، فسألها فلم تُخْبِرْه بشيءٍ مما في قلبها ، وفي أحد الأيام عندما ذهب السَّيِّدُ في نُزْهَةٍ مع عائلته بالقارب أخذت الكتابَ وذهبتْ إلى ضَرِيْحِ هاردل وقالتْ : ألْقَتْ بي عصا التَّرْحالِ في المدينة التي تَسْتَوْطنها ، فأضلَّتْنا سماءٌ واحدةٌ ، وأقلَّتنا أرضٌ واحدةٌ ، وضَمَّنا بلدٌ واحدٌ ، ولم تَشَأ الأقدارُ أن تَجْمَعَنا إلا بعد مَماتكَ ، وكم وددتُ لو كان اللقاءُ سَعيداً ، خَالياً من الشَّجن وذرْفَ الدموع ، تُبادلني فيه التَّحيَّةَ والعناقَ ، لا لقاء كَهْلَةٍ لرِمَّةٍ باليَةٍ .

انْظرْ إليَّ ، لقد تَغضَّنَ وجهي ، وشابَ رأسي ، واحْدودبَ ظهري ، ولكن قلبي ظل كما عهدته في شبابه قلب الكاعب النابض بالحُبِّ والحنين إلى مرآك ، فوا أسفي ألا أَصلَ إليكَ إلا بعد فوات الأوان !وبعد مُواراتكَ الثَّرى !

لقد كتبتُكَ بقلبي روايةً لا تَزول ، ونظَمْتُكَ قصيدةً لا تَمَّحي ، ورسمتكَ لوحةً بديعةً لا نَظيرَ لها ، ووسَمْتكَ حُبّاً لا تَطاله الأيامُ ، ولا تَنال منه ، وبعَثْتُكَ كلَّ يومٍ وليلةٍ أمنيةً إلى السماء .

لا تعْلمُ كم اختلستُ النَّظرَ إليكَ وأنتَ مع سيرفال ، وكم راقبْتُكَ وأنتَ جالسٌ تحتَ الشجرة مع سيدرا تتَحدَّثان وتُقَهْقهان ، ولا تعْلمُ كم وددتُ لو أني رَسَمْتُكَ في ذلك العَهْدِ لأنْظُرَ إلى صُورتكَ كلَّما أرَّقني الحنينُ وأناجيها وأبثها ألمي وشجني ، ولا تعْلمُ كم وددتُ لو أنَّكَ أخذتَ بيدي وجُلْنا حول الرَّابية ، وعَدَونا بجانب الجَدْول ، وتناولنا غداءنا تحت الشَّجرة ، واحتسينا الشاي عند السَّاقية ولكنها الأقدار .

ثم أسْبلَتْ ناظريها ثم قالتْ: كم وددتُ لو عاد شبابي ! لأكْتُبَ فيكَ روايةً تَصلُ شُهْرَتها عنان السَّماء ، وتَسيرُ بذكرها الرُّكبان ، ولكن لي في قصَّتكَ التي أوْدَعْتها الكتاب الذي معي بعض السَّلوى ، وأنَّى لي أن أكْتُبَ في هذا العمر الذي أصبحتُ فيه على مشارف القبر ، فقد رَقَّ جِلْدِي ، وَوَهَنَ عَظْمي ، وَوَهَى جَلَدِي .

انْظُرْ إلى الطُّيورِ الشَّادية ، والجَدَاول الجارية ، والأشْجَارِ الباسقة ، والأزْهَارِ العابقة ، لكأن شَدْوها زفراتي وأنيني ، وجَرَيَانها دُموعي ، وبُسُوقها طول شجني ، وتفَتُّحها تفَتُّح أبواب الأمل التي لا تلْبَثُ أن تُوْصَد .

ثم صَمَتَتْ وأطالت الصَّمْتَ ثم قالتْ : اعذرني سأقولها فهي كالطَّودِ الأشَمِّ الذي يَكادُ يُخْمدُ أنفاسي .

ثم صمَتَتْ واسْتَجْمعتْ قواها لتقول الكلمة التي طالما أرادتْ قولها : حبيبي هاردل ، حبيبي هاردل ، حبيبي هاردل .

ثم جَثَتْ على ركبتيها وانْخَرَطتْ في البُكاءِ من جديدٍ ، ثم أخرجتْ صندوق الجواهر ومدَّته أمام الضَّريح وقالتْ : ها أنذا أُقَـدِّمُ إليكَ أمانتكَ التي

أعطيتني إياها في جزيرة النرمليلا التي قَذَفتْكَ الأمواجُ إليها مع قلبي الذي لم يَمْلكْهُ سواكَ ، وأَعدُكَ عند عودتي إلى المدينة أن أنْشُرَ كتابكَ الذي كتَبْتَه ، وأحْتَفظَ به تذكاراً إلى أن يُواريني ضريحي .

ثم وضعتْ صندوقَ الجواهر الذي أعطاها إياه هاردل في جزيرة النرمليلا ونَحَتَتْ على نَصْبِ قَبْرِهِ هذه الكلمات : سَأُديرُ ظهري لكلِّ شيءٍ ، وأمحو من قلبي كلَّ ذكرى إلا ذكراكَ كما أدرتَ ظهركَ للدُّنيا ونعيمها ، وقضيتَ نَحْبكَ بهدوء بلا ضَجيجٍ ولا عَجيجٍ في مكانٍ ناءٍ لا أنيسَ لكَ به ولا حبيب ، ولم تُسَاعفك الأقدار فتَقْضي نَحْبَكَ في ديارِكَ ومرابع طفولتكَ بين أهلكَ وأحبائك .

ثم رفعتْ رأسها وقالتْ : هاجرتَ كهجرة الطُّيور مع فارق أن الطُّيورَ تعُود أما أنتَ فهاجرتَ بلا إيابٍ ، وتـوَارتْ شَمْسُ عُمرِكَ خلف وادي الغيابِ السَّحيقِ الذي لا أوبة منه ، وهاهي شمسي تُوشكُ على الأفول ، فقطار العمر يَمْضي في الطريق المرسوم له إلى مَحطَّةِ النِّهاية بلا إياب .

وعندما اسْتدارتْ للخلف رأتْ رجلاً عجوزاً يرقبها فذُعرتْ منه ورجعتْ خطوتين للوراء من غير وعيٍ منها ، فتقَدَّمَ العجوزُ حتى حاذاها ثم قال لها : أصاحبُ هذا الضَّريح قريبٌ لكِ ؟

فنفتْ هذا بإشارةٍ من رأسها .

فسألها مرة أخرى : لم أتيتِ إلى مكانٍ ناءٍ لا يرتاده الناس ؟

فأجابته قائلة : أتيتُ لأجدِّدَ عهداً .

فصَمَتَ العجوزُ هُنيهةً ثم قال : لقد رأيتُ ذات أصيلٍ عند البحيرة شيخاً دُموعه تنْسَابُ على خديه وهو يقول : أُحبُّكُما ، أُحبُّكُما ، أُحبُّكُما حُبَّاً أَسَالَ دمعي ، وأَشْجَى قلبي ، وأَرْمَضَ جسدي .

أُحبُّكُما حُبّاً أقَضَّ مَضْجعي ، وأطَالَ سُهادي ، ومنعني القرار .
أُحبُّكُما حُبّاً أرْوَض مَفاوزَ قلبي الشَّاسعة ، وأخْضَلَ أفانينه وألْدَتهَا .
أُحبُّكُما ، وإن تَقنْطَرَ فرسُ اللقاءِ ، وهوى سَانحُ اليُمْنِ ، ونَضَبَ نَهْرُ الوصلِ ، وانْحَسرَ ضِيءُ الشَّبابِ ، وامتدَّ هجيرُ الشَّيب .
أُحبُّكُما حُبّاً أبْدَلَ الخريفَ ربيعاً ، والهَجيرَ فيئاً ، واليأْسَ أملاً ، والشَّجنَ سعادةً ، ولن أنْساكُما وأسْلوكُما حتى يَشيبَ الغُرابُ ، ويَتواضعَ الطاؤوسُ ، ويَجْبُنَ الهزبرُ ، ويَتركَ الثعلبُ المكرَ ، ويَرحمَ الطَّريدةَ النَّسرُ ، ويَتركَ الإنْسانُ الجَوْرَ ، ويَخْرجَ الميّتُ من القبْرِ ، ويَعْذُبَ البحْرُ ، ويَسيلَ مِسْكاً بَدَلَ الماءِ النَّهْرُ .

ثم صَمَتَ قليلاً والتفتَ إلى ناحيتي ونَظرَ إلي نَظرَ من لا يَأْبه لوجودي ، ثم التقَطَ حجراً ورمى به إلى البحيرة وقال ودموعه ما تزال تجري : أيها الطَّيرُ البَارحُ ، يا جوَّابَ أصْقاعِ المعمورةِ ، لا يَقرُّ لك قَرارٌ في ليلٍ ولا نهارٍ ، لا يُقْعدُكَ هجيرٌ ، ولا يَمْنَعَكَ زَمْهريرٌ ، لا يَثْنيكَ بحرٌ ، ولا يَرِيثُكَ وَعْرٌ ، لا تعْطفُ على صغيرٍ ، ولا ترْأفُ بكبيرٍ ، تُحرقُ القُلوبَ قَلْباً قَلْباً ، وتُرمضُ الأجسادَ جسداً جسداً ، لا تَكلُّ ولا تَملُّ ، لا يَتقدَّمُ بك العمرُ ، ولا يُواريكَ القبرُ ، بل تَدْأبُ جاهداً في تفْريقِ الجُموع ، وتبْثُّ أجْنَادكَ لسَفْحِ الدُّمُوعِ ، تَسُوؤُكَ البَسْمةُ ، ويُشْجيكَ اللِّقاءُ ، أُنْسُكَ شجى القلوب ، وبسْمتُكَ نأي الأجساد .

ثم مضى ولمْ أَعْرفْ له خبراً ، ولم أره بعد ذلك اليوم ، فبكتْ برفنور وقالتْ : إنه صاحب هذا الضريح ، ولقد غادرَ هذه الدُّنيا وحيداً أسيفاً في أرضِ غربةٍ لم يُتَحْ له مُلاقاةُ من يُحب .

ثُمَّ عادتْ ونَشرتْ قصته التي لاقتْ رواجاً شديداً وتُرْجمتْ لعدة لغات .

❖❖❖❖❖❖❖

الفهارس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٧
ورحل خالد	٨
تنويه	١١
فخر التواجر	١٢
السر	١٣
الحيرة	٢٧
القرار	٣٦
الحلم	٤٩
الرحيل	٨٧
برفنور	٩٧
الشك	١٠٨
الحقيقة	١١٦
الفهارس	١٣٢

للاقتراحات والملاحظات / تويتر (@ arabods) .

اطَّلع أحد صحبي في عام ١٤٣٦ هـ أو ١٤٣٧ هـ على مسودة رواية (أرابودس) دون علمي ، واقتبس منها ما أعجبه ونشره على الإنترنت ، وبعد مدة أخبرني بما فعله ، فحسبي الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه.

أشكر أخي وصديقي العزيز /

سلطان بن عبدالعزيز الراكضي

على تصويره وتصميمه البديع .

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٦٤٦٢
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٠١٦٠-٧